باتريك موديانو

تفتيش ليلي



رواية



ترجمة
محمود قاسم



نوبل للآداب 2014

للثقافة والنشر والإعلام

باتريك موديانو

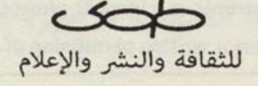


تفتيش ليلي

نوبل ٢٠١٤

ترجمة

محمود قاسم



للثقافة والنشر والإعلام

باتريك موديانو: تفتيش ليلي

Book: Taftish layli

الكتاب: تفتيش ليلي

Patrick Modiano

ترجمة: محمود قاسم

Translated By: mahmoud kassem

First Edition: 2015

الطبعة الأولى ٢٠١٥

طوى

للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 00966210811 1 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٢٣٠٤

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ISBN 978-9933-35-224-0

قبل أن تقرأ

أكاد أجزم أنه لا توجد رواية، في تاريخ الأدب كافة، تضم مثل هذا العدد الكبير من أسماء الأماكن والأشخاص، هي أسماء كثيرة، غريبة النطق، تجمع بين عدة هوايات أوربية، تعيش في باريس أثناء الاحتلال النازي لفرنسا في الحرب العالمية الثانية.

غرابة هذه الأسماء، ليس في تنوعها، فقط، وكثرتها، بل أن المؤلف لم يحدثنا قط في أغلب صفحات الراوية عن هويتها، ومن تكون، ومن أين جاءت، وكيف تجمعت، والغريب أننا سنرى الراوية يحمل أكثر من اسم مستعار، وهو يمارس مهنة لا يميل إليها، ويترأسه شخصان بالغي الغرابة، والغموض، وقد ازدادت هذه الأسماء غموضاً من خلال تسميتها بأسماء مستعارة مثل الخديو، والملازم، والأستاذ، وجان فاروق، وغيرهم، وإذا كان الراوية لصغير السن قد تحدث عن اثنين من هذه الشخصيات وهي كوكولاكور وأزميرالدا، فإنه أبقى على الأسماء الأخرى وقد كساها الغموض، حتى ما بعد الصفحة الأخيرة من هذه الراوية القصيرة

التي نشرها الكاتب عام ١٩٦٩، وكان آنذاك في الرابعة والعشرين من العمر، ورغم هذا تجسدت في الراوية كافة ملامح أدبه الذي ظل يكتبه حتى فاز بجائزة نوبل عام ٢٠١٤.

أسماء الأشخاص، عرفناها، وقرأناها بصعوبة دون أن نعرف هويتها أو الجنسيات التي تنتمي إليها، فهناك أغنيات باللغة الألمانية، لغة المحتل، وأخرى بالفرنسية، كما أننا لا نعرف قط أعمار هؤلاء الأشخاص، ولا نوع العلاقات التي تربطهم ببعض. هم في الغالب أشبه بقطع الشطرنج التي يلعبها البعض، تتحرك بأيدى الآخرين، وتكتسب أهميتها من قيام اللاعب بتحريكها، لكنها مجرد قطع من الخشب أو العاج.

ومن هنا جاء حكمنا على الرواية، بأنها تضم أكبر عدد من الشخصيات، التي لا نعرف عنها أي تفاصيل، وهذا العدد من الشخصيات يفوق أمثاله في الروايات النهرية الطويلة التي نعرفها، وقرأناها، خاصة روايات الحروب، والمجموعات مثل «الحرب والسلام»، وسوف يُصدم القارئ، في هذه الخاصية، لكنه سرعان ما يدرك أنه أمام نص روائي مختلف، فالأشخاص موجودة. في مكان بعينه، والراوية يتحرك تبعا لوظيفته في حنايا مدينة كبرى مظلمة خاصة في الليل، فلا يكاد يوجد مشهد واحد من الراوية يدور في النهار، انها مدينة تحت الاحتلال، والعتمة، ولعل المكان

الوحيد الموجود في عاصمة النور، التي هي هنا مدينة الأشباح، هو الضوء الذي يتحرك في أعلى برج في المدينة.

ومثلما الأسماء غريبة، متداخلة، متشابكة، فإن أسماء الأماكن أيضاً غريبة وكثيرة، ولا يكاد يعرفها إلا من تجول في باريس وأحيائها، وركب المترو، وانتقل بين محطاته، وعرف الطرق الواسعة، والحارات، وأسماء الحدائق، ما يجعل القارئ يحس أن هذه المدينة الشبح صارت سجناً لمن يسكن فيها، ونشعر بصدق أن الأشخاص الموجودين في الراوية هم فقط من سكنوا المدينة في تلك الحقبة وأنه لا يوجد غيرهم، فلا أي ذكر للآخر، في كل هذه الأماكن الكثيرة المتعددة، تبدو الأشياء كأنها تتحرك في صمت، بلا أصوات، والراوية لم ير قط أي أشخاص سوى من ذكرهم، وتعمد أن يتجاهل ذكر كلمات مبشرة عنهم.

لذا، فإن الراوية تبدو غير مفهومة لغير الباريسيين، وأيضاً لمن لا يعرف المدينة، أو تجول فيها، ورغم ذلك فإن هناك سحراً ما في الحكي خاصة حين تتفكك بعض خيوط الغموض، لدى الشاب الراوية، الذي اضطرته الظروف أن يكون عميلاً مزدوجاً بين الخديو، والملازم اللذان يمثلان السلطة، خاصة أن الأول تولى رئاسة جهاز الشرطة، ورغم ذلك فهو يقيم في مكتب أقرب إلى المخبر الشخصي، وليس لمدير أمن، أو رئيس شرطة، كما يحدثنا الراوية.

يبدو كل شيء ساكناً في هذه الراوية، الأشخاص، جالسون في أماكنهم لا يتحركون، خاصة كوكولاكور، وآزميرالدا، والأخوان شابوشنيكوف، ولا يكاد قادة الشرطة يتحركون بعيداً عن الدائرة الضيقة التي يعيشان فيها، كما أن الأماكن هنا ساكنة، لا تتحرك، تخلو من الحياة، لا تغادر هذه الأماكن قط، تنتظر أن يأتيها الناس، لكن يبدو أن ظروف الاحتلال فرضت هذا الثبات والسكون، حتى الأشخاص الموجودون خارج هدوء باريس، فإنهم ثابتين في أماكنهم التي يعيشون فيها، مثل أم الراوية التي تسكن في لوزان، بسويسرا، هو يعرف أنها موجودة في بيتها هناك، ساكنة، لا تتحرك، لعلها تنتظر حضوره، وهي التي هاجرت إلى هناك بعد وفاة زوجها المناضل، وإليها يذهب ابنها هروبا من رجال الشرطة والجستابو الذين اكتشفوا انه عميل مزدوج.

نعم، كل شيء غريب، وجديد، ومبهر فيما يتعلق بالأسماء، وقد جاءت عبقرية الرواية في أن أصحاب هذه الأسماء، التصقوا ببعض، كأنهم تماثيل تزدحم في قاعة متحف، رغم أن هذه الشخصيات تشرب، وتأكل، وتلعب الشطرنج، لكنها قليلة، أو نادرة الكلام، لذا خلت الراوية تقريباً من الحوار المتبادل بين شخصين وأكثر، كي يبقى الراوية بمثابة المتحدث الأوحد باسم هذه الشخصيات، خاصة أن هناك شخصين أصابهما الخرس، وغير قادرين على الكلام، هما العجوزان كوكولاكور وآزميرالدا، نحن لا

نعرف من هما، ولا ما هي أعمارهما، وهل يعني الخرس، انهما أيضاً عاجزين عن الحركة، فالراوية يوليهما عناية ملحوظة، ويقرر أن يتولى أمرهما، وكأنهما مصابان بالتوحد، وليس فقط بالصم.

ورغم أن أحداث الرواية، مثل أغلب أعمال باتريك موديانو تدور في زمن الاحتلال النازي لفرنسا، خاصة باريس، فمدينة الأشباح هذه تكاد تخلو من جنود الاحتلال، بل ومن كافة مظاهر الاحتلال، عدا العتمة التي تسيطر عليها تماماً، وقد ظلت أحداث الراوية ثابتة، تماماً إلى أن بدأت تتفكك قليلاً في النصف الثانى من هذه الرواية القصيرة، مثل بقية أعمال الكاتب، ولذا فإننا أمام نص روائي صعب أن تحكيه، وليس من السهل استيعابه، لكن من الممكن معايشته، والدخول إليه، كي تحيا الحياة نفسها التي يعيشها الأبطال. بالإيقاع ذاته، من هنا تأتي أهمية أن تعرف كيف تقرأ مثل هذه النصوص، خاصة الموديانية، وقد أشرنا في مقالنا المنشور في مجلة العربي الكويتية عن الكاتب في يناير ١٩٨٢ تحت عنوان الموديانية أن الكاتب صنع صياغة جديدة تخصه هو وحده، كأن تقول «كافكاويا». فإن هناك عالماً «موديانيا»، يعني أن هناك محاولات حنينية لدى كل من يروى رواية من هذه الروايات، إلى تجميع أشياء صغيرة من أجل صنع عالم خاص. كأن تستجمع صوراً وتضعها في ألبوم لتسترد الذاكرة المفقودة، ولذا فإن لكل شيء صغير أهميته في هذه الراوية، مثلما في بقية أعمال الكاتب،

مثل المرأة على الطراز الفينيسي التي لا تكف نساء الراوية العجوزات غالباً، عن التطلع إليها، ومراجعتها في معرفة ماذا فعل الزمن..

الزمن بالكاد ليس موجوداً في الراوية، لا نعرف في أي وقت بالضبط تدور الحوادث، أو ما هو تاريخ هذه الوقائع، وإذا كان بعض الأشخاص يتحركون هنا، فإن الزمن لا يتحرك بهم، الوحيد الذي يتحرك كأنه ثابت في مكانه، هو الراوية، ولا أحد غيره، يقوم بتجميع الكروت والفيشات، الخاصة بالأشخاص الذين يتم التحرى عنهم، كما أن رئيسه الخديو يوكل إليه مهمة خطيرة في أولى مراحل حياته الوظيفية، وهي أن يصبح عضواً في جماعة ما، لا نستطيع أن نعرف عنها سوى اسمها، وهي عبارة عن قائد، له موقفه، ويندس الراوية وسط هذه الجماعة..

إذن فالموديانية تعنى التفاصيل الدقيقة لاستعادة الذاكرة، أو الذكريات، لأشخاص يعيشون في الغالب داخل أنفسهم، دون أن يخرجوا منها، وهذه الراوية، غريبة العنوان، مليئة بمثل هؤلاء الأشخاص، الذين نكاد نراهم في لوحات ماتيس، جالسين في المقاهي، والكافتريات، والقاعات الواسعة. في الفنادق، يتأملون داخل ذوات كل منهم، وفي الوقت الذي يتسمون فيه بالكمون والسكون معاً، فإن الراوية لا يكاد يحكي. بل يتذكر، وهناك فارق واضح بين الحكي، والتذكر، فالأول يتم بشكل منتظم منسق

للغاية، والثانى يحدث بتلقائية ملحوظة، وبتداخل غير منطقي وبصورة غير كاملة، ولعل هذا يتضح في الأدب العالمى الذي قرأه العالم في النصف الأول من القرن العشرين، خاصة لبروست، وجويس، وفرجينيا وولف.

وهناك محاولات لتشبيه الموديانية. بعالم بروست، لكننى أرى أن هناك شخصية مستقلة ملحوظة، في التذكر، والكتابة عند موديانو، يضارع بها بروست في أنه عالم جوائى خاص جداً، وغير مألوف.

ولعل هذا يسوقنا إلى الدهشة التي أصابت القارىء، والكاتب العربي الذي صدم بفوز موديانو بجائزة نوبل، وكنت وراء ترجمة روايتين نشرتا له باللغة العربية قبل فوزه بالجائزة بأكثر من عشرين عاماً، هما «شارع الحوانيت المعتمة»، و«الحي الضائع» من ترجمة محمد عبد المنعم جلال، فلما فاز الرجل بالجائزة، اندهش الكثيرون، وعبّر أحدهم أنه لأول مرة يسمع مثل هذه المصطلحات، فأجبته بأن هذه سمة الكاتب، والرواية، التي تسبب الدهشة، وقد كشفت فوز موديانو عن كيفية تعامل المثقف العربي الذي لا يقرأ مع كل ما لا يعرفه.

هذه الراوية تعتمد على الأغنيات التي يتم بثها من راديو، أو جرامافون، أو آلة بث موجودة حول الأشخاص، فتتقاطع كلمات

الأغنيات داخل النص الأدبي، والأغنيات مكتوبة بالألمانية، ثم بالفرنسية، ولأن الاحتلال النازي موجود هناك، فلابد من ترصيع اللغة الفرنسية بكلمات ألمانية، سواء في النص النثري، أو مقاطع الشعر التي تشير إليها ببنط مختلف، وإذا رجعنا مرة أخرى إلى مسألة الأسماء في الراوية، فبعضها متخيل من الكاتب، مثل أغلب الشخصيات الذين نقرأهم، كما أن هناك أسماء يعرفها الذين عاشوا في تلك الحقبة، خاصة عناوين الأغنيات، واسم المطربة الألمانية الشهيرة ليلي مارلين، وهو أيضاً اسم أغنية شهيرة، وقد تحولت حياة هذه الشخصية إلى فيلم أخرجه الألمانى فاسبندر في عام ١٩٧٨. وتبعاً لكثرة الأسماء فإنه من الصعب، أن نكتب إشارات موجزة عن الأماكن الباريسية، وما أكثرها في الرواية، ومنها القديس فرانسوا داسيس المذكور بشكل غريب وموجز عن أسماء محطات المترو الكثيرة، أو الجادات المعروفة، ودوائر الأحياء والحدائق، والشوارع، والمقاهي، والفنادق، والأغنيات، وقررنا أن نترك الراوية بشكلها هذا كي يتعاطاتها القارىء، فهي ليست مكتوبة للعامة، ولكن لمن لديه القدرة على تذوق هذا النوع من الروايات غير المألوفة.

ويكفي ونحن نقرأ هذه الرواية، «تفتيش ليلي»، أن نعيش الأجواء التي يقدمها لنا موديانو، ومن هذه الأجواء يمكن الوقوع في حيرة ترجمة العنوان، فقد استوحاه الكاتب من لوحة شهيرة

رسمها رامبرانت في القرن الثامن عشر، لكن لاعلاقة بموضوع اللوحة، بعالم هذه الراوية التي يمكن ترجمتها أيضاً ب «دائرة ليل»، لكن لاشك أن «تفتيش ليلي» يروق أكثر للاسماع، ويعطى المعنى نفسه.

من المهم أن نلحظ اللغة البالغة الخصوصية التي كتب بها المؤلف روايته، ليس فقط من خلال أسماء الأشخاص، والأماكن، والأزمنة، بل أيضاً لأنه استخدم التكثيف بشكل ملحوظ، وكدس جملة وراء بعضها بشكل ملحوظ، واستعانته بكلمات أغنيات باللغتين الألمانية والفرنسية كفواصل، وان الرواية أشبه بجرعة واحدة، بدون فصول، وفيها تداخلت الأزمنة، والأمكنة وتزاحمت الأحداث بما يتناسب مع تيار الوعى الكامل بالأحداث، لشاب في العشرين من عمره، يجد نفسه مكلف بعملية بوليسية، فيصبح عميلا مزدوجا، بين الجهة التي أرسلته وبين المجموعة المناهضة التي انضم إليها، لكن ليس هذا موضوع الرواية، إنها أجواء خاصة للغاية.

من أجل رودى موديانو

من أجل أمي

لماذا وُجِّهتْ

إليّ الأشياء نفسها

وأنا مرتعب من الشفقة

سكوت فيتزجيرالد

فى الليل، تتفجر ضحكات.. رفع الخديو رأسه:

ـ هكذا، تنتظروننا وأنتم تلعبون الماهـ ـ جونج؟[1]

ثم نثر قطع العاج فوق المكتب، وسأل السيد فيليبير:

ـ وحدك؟

ـ هل تنتظروننا منذ وقت طويل، يا صغيري؟

تقاطعت أصواتهما مع همسات، ونبرات مغايرة مهيبة، ابتسم السيد فيليبير وهو يصدر حركة حادة من يده، هز الخديو رأسه جهة اليسار وظل خائر القوي، كاد خده أن يلمس كتفه تقريباً، مثل ما يفعل طير الأرغل.

فى وسط القاعة، بيانو طراز البرميل، وأبسطة، وستائر بنفسجية، وزهريات كبيرة مليئة بزهور الداليا والأوركيد، وضوء الثريات بنفسجى، مثل الموجود في الكوابيس، ألح السيد فيليبير:

---

(١) لعبة صينية قريبة من الدومينو.

ـ هل من قليل من الموسيقى للشعور بالراحة؟

هتف ليونيل دوزيف: موسيقى رقيقة، تلزمنا موسيقى رقيقة.

اقترح الكونت باروتسي: **بين اليوم وغداً**، انه سلوفوكس.

أعلنت السيدة سلطانة: كنت أفضل التانجو.

قالت البارونة ليديا ستال بتوسل: آه، نعم، نعم، من فضلكم.

همست فيوليت موريس بصوت كئيب: **أنت أنت سترحل من هنا**

قاطع الخديو: اذهب

بين اليوم وغدا

النساء بالغات الشحوب، ويرتدى الرجال ملابس حمضية، يلبس ليونيل دوزيف بدلة برتقالية كاملة، وقميص يشع كالزئبق، من طراز بول دوهلدر، وسترة صفراء وبنطال أزرق سماوى، أما الكونت باروتسي فيرتدى سموكنج أخضر مرقط، بعض الثنائيات، يرقص كوستا شيسكو مع جين ـ فاروق دوميتود. ويرقص جيتان دو لاستاذ مع أوريشارفى، وسيمون بوك ـ رو مع ايرين دوترانزيه.. وقف السيد فيليبير جانباً وقد استند على النافذة اليسرى. وهز كتفيه عندما دعاه أحد الأخوين شابوشينكوف للرقص، جلس الخديو أمام المكتب، وهو يصفر، ويطرق على الإيقاع، سأل، في قلق:

ـ ألن ترقص يا صغيري؟ هل أنت متأكد أن لديك وقتك... كل وقتك...؟

رد السيد فيليبير: كما ترى، فالشرطة طال صبرها طويلاً، طويلاً.

توجه نحو المنضدة وأمسك الكتاب المثنى بقطعة جلد خضراء باهتة موجودة بداخله مختارات الخونة، «من السيبياد إلى القبطان دريفوس». تصفحها، كل ما وجده محشور في الصفحة ـ رسائل تلغرافية ـ وبطاقات زيارة، وزهور مجففة ـ وضعها فوق المكتب، يبدو الخديو مهتما بشدة بهذا التحقيق.

هل هذا كتاب مزعج يا صغيري؟

مد له فيليبير بصورة تفحصها الخديو طويلا، وقف السيد فيليبير خلفه. همس الخديو. وهو يشير إلى الصورة: أمه، أليس كذلك يا صغيري. هل السيدة أمك؟.. وانسالت دمعتان على خديه، حتى بلغتا الشفتين. نزع السيد فيليبير نظارته، عيناه مفتوحتان باتساع، ثم بكى أيضاً، وفي هذه اللحظة، تفجرت الألحان الأولى لأغنية بي ميوزيك. انه التانجو، لم يعد لديهم مكان كي يتصرفوا على راحاتهم. تدافع البعض وهم يترنحون، وينزلقون فوق الأرضية، سألت البارونة ليديا ستال: «ألن ترقصوا؟، هيا، امنحوني رقصة الرومبا القادمة». همس الخديو: هذا الشاب لا يرغب في الرقص.

ليس إلا الرومبا، رومبا!.. وصاحت «فيوليت موريس» رومبا! رومبا.. تحت ضوء الثريتين. احمرت الوجوه، واحتقنت، ولمعت بالبنفسجى الداكن، سرى العرق في جنباتهم، وتمددت العيون، واسودت خدود بوسي دوهلدر وكأنها تتكلس. بدت وجنتا الكونت كأنهما تحفران، وارتعد جذع رشيد فون روزنهايم. وضع ليونيل زيف يده فوق قلبه، وبدت عليه البلادة كأنه ضرب كوستا شيسكو، واودي شارفي. اهتز مكياج النساء، وقد اكتسب الشعر بصبغات أكثر ميلاً للون البنفسجي. تناثروا جميعاً وراحوا يتعفنون في المكان. هل يشمون هذا؟ تمتم الخديو:

ـ لنتكلم قليلاً، لكن لنتكلم جدياً، يا صغيري، هل دخلت في تواصل مع ما يسمى ب»الأمير دولا مبال«؟ من هو؟ وأين يوجد؟

همس السيد فيليبير: هل تسمع. يريد هنري تفصيلات عم يسمى «الأمير دو لامبال».

توقفت الإسطوانة، وانتشرت فوق المخادع، والمساند، والمقاعد الكبرى، نزع دوميتود قنينة الكونياك من فمه. ترك الإخوان شابوشنيكوف الحجرة وعاودا الظهور مع صينيتين مليئتين بالكؤوس، ملأهما لأستاذ في الدور الأرضى.. اقترح هاياكاوا «فى نخب أصدقائى».. صاح كوستا شيسكو: وأعلن ميكى القريب منه: في صحة الخديو، في صحة المفتش فيليبير: شريحة كعك للسيدة

بومبادور، هتفت البارونة ليديا ستال، تلامست الكؤوس، وشربوا في الرشفة نفسها.

همس الخديو: عنوان دولامبال، كن لطيفاً يا عزيزي، أعطني عنوان دولامبال.

همس السيد فيلیبیر: أنت تعرف جيداً أننا الأقوى، يا عزيزي.

مارس الآخرون مكائدهم بصوت خفيض، الضوء الخافت للثريا يتأرجح بين الأزرق والبنفسجي الداكن. لم يعد في الإمكان تمييز الوجوه ـ صار فندق بليتز أكثر وأكثر تدفقاً ـ لا تقلقوا، طالما أنني هنا، سوف تنالون توقيعا على بياض من السفارة ـ كلمة الكونت جراف كروز، عزيزي، أغلق بليتز عينيه تماماً ـ سوف أتدخل قريبا من أوتو ـ أنا الصديقة الحميمة للدكتور بست. هل تريدون أن أكلمه عن ذلك؟.

رنّ جرس هاتف في ديفلانو، وتم ترتيب كل شيء ـ يجب أن نكون قساة مع الوسطاء ـ وإلا استغلونا ـ لا يوجد حي! ـ إلا إذا قمنا بتغطيته! ـ يجب عليهم أن يعرفوننا عن طيب خاطر، سوف يأتون إلينا يسألوننا الحساب، وليس هم، كما ترون، إلا نحن..! لم نقل كلمتنا الأخيرة ـ أخبار الجبهة ممتازة. ممتازة!

كرر السيد فيليبير: يود عنوان لامبال، إبذل مجهوداً.. يا صغيري.

قال الخديو: افهم تماماً دوافعك. واقترح عليك الآتي. سوف تدلنا أولاً على الأماكن التي يمكن أن نقبض، هذه الليلة، على كل أعضاء الشبكة.

أضاف السيد فيليبير: أمر بسيط. ثم سوف تحصل على الكثير من الضمانات كي تعطينا عنوان لامبال.

همس الخديو: مجازفة لهذه الليلة.. سوف نسمعكم، يا طفلي.

سأل التاجر: بطاقة صفراء، اشتريت من شارع روميرو. هل أنت طالب؟ نحن نهتم بالشباب، فالمستقبل أمامهم، ونريد أن نعرف مشاريعهم. نحن نغمرهم بالاسئلة، يلزمنا مصباح جيب كهربي. كي نجد الصفحة من جديد. نحن لا نرى شيئاً في هذه العتمة. تتضح البطاقة، الأنف ملتصق بالورق، كتب العنوان الأول على الرسائل الرئيسية: رسائل الملازم، رئيس الشبكة، سنجاهد كي ننسى عينيه الزرقاوين السوداوين والصوت الحار الذي يردد: هل الأمر على ما يرام يا صغيري؟.. يود الضابط أن ينال كافة الرذائل، ليكن مفيداً ـ مدعياً ـ قطعة مزيفة. هذا يسهل الأمور، لكن نحن لا نجد حبة تراب واحدة في هذه الماسة. وفي نهاية الأمر، نفكر في أذن الملازم. يكفي أن نأخذ هذا الغضروف في الاعتبار، تعبر عن رغبة لا تقاوم في التقيوء، كيف يمكن للبشر أن يمتلكوا هذا النوع من طرد الأرواح الوحشي؟ نتخيل اذن الملازم، هناك. فوق المكتب،

أكبر حجماً من المألوف، قرمزية، وبارزة الشرايين. تشير، بإيقاع سريع، إلى الناحية التي يوجد فيها هذه الليلة بميدان شاتليه، ثم الأسماء والعناوين دون فحص البطاقة، متخذا نبرة تلميذ نجيب يحفظ نصاً من قصص لافونتين الخيالية. قال الخديو:

ـ الكثير من الشباك في المنظور.

أشعل سيجارة، رافعاً أنفه نحو السقف، محدثاً العديد من دوائر الدخان، بينما جلس السيد فيليبير أمام المكتب وهو يتصفح البطاقة. ويدقق في العناوين.

استكمل الآخرون الحديث فيم بينهم، ـ وماذا لو رقصوا أيضاً؟ أشعر بالتنميل في ساقي ـ موسيقى رقيقة ـ تلزمنا موسيقى رقيقة!.. ليتكلم كل واحد عن أفضلياته! رومبا! ـ إيقاع نقي! الحب! كوكوسيكو!

ـ ماذا تريد لولا!. الشبح! ـ وماذا لو لعبوا الاستغماية؟ ضرب كفيه ببعضهما ـ نعم، نعم! الاستغماية! انفجروا في الضحك في الظلام، وارتجفت.

قبل ساعات.. كانت شلالات غابة بولونيا. عزفت الفرقة فالس أوروبى. اتخذ شخصان مكانيهما حول المائدة المجاورة لنا، رجل عجوز ذو شارب رمادي لامع، وقبعة بيضاء، وسيدة عجوز في ثوب أزرق داكن. تهز الرياح المصابيح المصنوعة على الطريقة

الفينسية المعلقة على الأشجار، يدخن كوكولاكور سيجارته. وتشرب آزميرلدا القرنفل بكل تعقل، لايتكلمان، ولهذا أحبهما، أردت أن أصفهما بدقة: كوكولاكور عملاق، أحمر الشعر، العينان لضرير تبرقان من وقت لآخر، من خلال أبدية حزينة، دائماً يخفيهما خلف عوينات سوداء. ويتحرك بتثاقل وتردد، ما يعطى الايحاء انه يمشى أثناء النوم. ماذا عن آزميرالدا؟ انها فتاة صغيرة ضامرة. أستطيع أن أكرس في موضوعها مجموعة من السمات المتحركة، لكنني منهك، تخليت عنه، كوكولاكور، وآزميرالدا، هذان الأسمان يكفيني وجودهما صامتين إلى جانبى، تنظر آزميرالدا إلى جلادين في دهشة. ويبتسم كوكولاكور، فأنا ملاكه الحارس. نأتي كل يوم إلى غابة بولونياكى نتذوق أجمل مزايا الصيف، وندخل في هذه المقاطعة الغامضة ببحيراتها، ودروبها المشجرة، وقاعات الشاى الغائصة أسفل الخضرة، لم يتغير شيء هنا. منذ طفولتنا. هل تتذكر؟ أنت تلعب الطوق بطول ممشى بريه كاتلان. تداعب الرياح شعر آزميرالدا. أخبرني مدرس البيانو الخاص بها، أنها سوف تتقدم، تعلمت قراءة النوتة بطريقة بييه، وقريباً سوف تعزف قطعا قصيرة لفولفجانج آماديوس موتسارت. أشعل كوكولاكور سيجاراً. بكل خجل، كأنه يعتذر. أحبهما، لاتوجد أي حساسية مزيفة في حبى، أفكر: لو لم أكن هناك، لقد كانوا يحركون لهما أقدامهما، هما بائسان، صامتان دوماً، نفخة ريح

خفيفة أو حركة واحدة تكفى لتحطيمهما، ليس لديهما ما يخشيناه. تأخذني الرغبة أحياناً أن اتركهما، انتابتني لحظة فارقة، هذا المساء، على سبيل المثال، قمت وأخبرتهما بصوت خفيض: «انتظرا سأعود حالاً»... هز كوكولاكور رأسه، والابتسامة الباهتة لآزميرالدا. يجب أن أخطو الخطوات العشر الأولى، دون أن أستدير حولي. ثم، كل شيء سيمشى تلقائيا، سأجري نحو السيارة وأنطلق بهما مخادعاً. الأمر الأكثر صعوبة في أن أفك عناقه، فخلال بضع ثوان سيحدث الاختناق. لكن لا شيء يعادل الخنق الذي يمارسونه في اللحظة التي يرتفع فيها الجسد وينزل ببطء شديد نحو الأسفل. هذا أيضاً صحيح بالنسبة لملمس الحمام الناعم وليس بهدف الخيانة التي تعني التخلى عن الناس في الليل، وبعد أن وعدته بالعودة، راحت آزميرالدا تتسلى بقطعة من اللباد. تنفخ فيها وهي تلوك القرنفل. يدخن كوكولاكور سيجاره، وعندما استبد بي الدوار أن أتركهما، تأملتهما الواحد تلو الآخر. بأقل قدر من التركيز في حركاتهما، أرقب تعبيرات وجهيهما كأنهما متعلقان عند حاجز جسر. قلت لنفسي أنني إذا تركتهما، فسوف أعود للوحدة من جديد.. نحن في الصيف، وكى أتأكد، فإن الجميع سوف يعود في الشهر المقبل. انه الصيف، بالطبع، لكنه سوف يطول بطريقة مبهجة أكثر من أي سيارة في باريس، أكثر من حائط خرسانة، وبين الحين والآخر فإن دقات الساعة تكسر الصمت. في منحنى

طريق مشمس، حدث لي منذ فكرت أنني سوف أرى كابوسا، أن يترك الناس باريس في شهر يوليو، ويجتمعون في المساء للمرة الأخيرة في شرفات الشانزليزيه، وغابة بولونيا. لم تكن أبداً أجمل من هذه اللحظة، لم أتذوق قط حزن الصيف، انه موسم الألعاب النارية. كل العالم متأهب للإختفاء، وأن يلقي اضاءته الأخيرة أسفل الأغصان ومصابيح فينسيا. تتشابك أيادي الناس، ويتكلمون بتؤدة، يضحكون ويتواخزون بعصبية، نسمع صوت تحطم الكؤوس، والأبواب تقرقع، ويبدأ الخروج، في أثناء النهار أتنزه في هذه المدينة المنحرفة. تنطلق الأدخنة من المداخن: إنهم يحرقون أوراقهم القديمة قبل الرحيل، لا يريدون أن يراكموا الحقائب التي صارت بلا فائدة، يسير رهط السيارات نحو بوابات باريس، وأنا أجلس فوق مقعد خشبي، أريد أن أصحبهم في هروبهم، لكنني لا أملك شيئًا أنقذ به نفسي. عندما يرحلون، فإن ظلالاً تشكل دائرة حولي. أتعرف على بعض الوجوه، تبدو النساء شاحبات. والرجال يظهرون كأنهم زنوج متأنقين. أحذية الخرتيت. ملابس متعددة الألوان، فرسان من البلاتين، البعض يعرض بنفسه صفوفًا من الأسنان الذهبية، وأنا بين أيدي أشخاص لديهم القليل من التوصيات: فئران تقوم بالاستيلاء على مدينة بعد أن قضى الطاعون على كل سكانها، منحوني بطاقة شرطة، وتصريح بحمل سلاح. وضموني إلى «شبكة» من أجل تدميرها. ومنذ طفولتي يعدونني

بأشياء كثيرة لم أحصل عليها. تتحدد المواعيد التي لا أذهب إليها، تبدو لي «طفولية»، كي أصبح خائنًا مثاليا. انتظروا. أنا عائد.... نتأمل كل هذه الوجوه للمرة الأخيرة قبل أن يغمرها الليل.. لا يستطيع البعض أن يتخيل أنني سأتركهم: يحدق فيّ البعض بعيون جوفاء، «أخبرنا، هل ستعود؟».. أتذكر أيضاً هذه الوخزات الحادة في القلب في كل مرة أرجع فيها إلي ساعتي: يسمعونني طوال خمس عشرة، وعشرين دقيقة. لا يمكن أن نفقد الثقة. لديّ الرغبة أن أهرول إلى الموعد، يستمر الدوار، بشكل عام، ساعة. عندما نشى الأسرار فالأمر بالغ السهولة، وفي خلال دقائق، فإن الزمن يكشف الأسماء والعناوين بصوت متسارع. واش. لقد أصبحت قاتلاً كما يشاءون. أضرب ضحاياى بكل صمت. ثم أتأمل عويناتهم. وحلقات المفاتيح، ومناديلهم، وروابط العنق، أشياء بائسة ليست بذات أهمية لهؤلاء الذين يتنامون، ويبدون ليّ بمثابة وجوه الموتى. وقبل أن أقتلهم فإنني لا أبعد عيني عن واحد من الأشياء الأكثر خجلا في شخوصهم: الأحذية. من الخطأ أن نعتقد أن اهتزاز الأيدي، وإيحاءات الوجوه، والنظرة، وبحة الصوت، كلها قادرة، فقط، على أن تحركك. من الوهلة الأولى. المثير للعواطف، أنني وجدتها في الأحذية، وعندما أبلغ حد الندم أنني قتلتهم. فإنني لا أفكر لا. في ابتساماتهم ولا في طيبة قلوبهم. ولكن في ما يخص الأحذية، بجانبى كذبات قوانين الشرطة التي تجلت

بكثرة في هذه الأوقات، تملأ جيوبي أوراق بنكية، تفيدني ثروتي في أن أحمي كوكولاكور وآزميرالدا. وبدونهم أكون وحيداً. أفكر أحياناً في أنهما غير موجودين. أصبح هذا الضرير الأحمر وهذه الفتاة الصغيرة العجفاء الهشة فرصة طيبة تنتظرني، أيضاً القليل من الصبر. سوف تنهمر الدموع. وسأعرف أخيراً لذة «الرحمة الذاتية»، مثلما يقول اليهود الانجليز. تبتسم لي آزميرالدا. امتص كوكولاكور سيجاره، السيد العجوز والمرأة العجوز ذات الفستان الداكن، والموائد الخالية من حولنا، والثريات التي نسوا اطفائها.. خشوت في كل لحظة - أن أسمع السيارات تتوقف فوق الطريق الحصى. البوابات تقرقع. إنهم يقتربون منا، ببطء شديد في ترنح. تطلق آزميرالدا فقاعات صابون، وتنظر إليها وهي تدعك رموشها، انفجرت احدها على خد العجوز. ترتعد الأشجار، والأوركسترا يعزف الألحان الأولى لقيصر. ثم رقصة الفوكسترات[1] ومسيرة عسكرية، قريبا لن يكون لدينا المزيد من الموسيقى. فالآلات تتنفس، وهي تهتز، أرى وجه هذا الرجل الذي سحبوه إلى القاعة، وقد ربطت يداه بحزام.. يود أن يكسب الوقت وأن يجعله يفعل أولا، تبدو حركات وجهه كأنه يبحث في أمر تشتيتها، لا يستطيع السيطرة على خوفه. حاول أن يجذبهم. أصغى السمع، كاشفا عن

---

(١) رقصة أمريكية متقطعة.

كتفه الأيمن بحركات صغيرة متتابعة من كل أعضائه. عليه ألا يبقى هنا ثانية واحدة بعد ذلك. سوف تموت الموسيقى بعد الرجفة الأخيرة. وتنطفىء الثريات.

ـ هل هو جزء من لعبة الاستغماية؟ ـ فكرة ممتازة! ـ لسنا في حاجة أن تعصب العينين ـ الظلام يكفي ـ عليك أن تبدأ. أودى شارفى! ـ مشتت!

يمشون بخطى ملبدة، نسمعهم يفتحون باب الدولاب، بلاشك هم يريدون الاختباء بداخله. ينتابنا الإحساس أنهم يدورون حول المكتب. تقرقع السقيفة. يصطدم أحدهم بقطع الأثاث. وشبح آخر يقف أمام النافذة، ضحكات ملء الحنجرة. تنهدات، تتسارع وكأنهم يجب أن يجروا في كل المعاني ـ سوف أمسك بك يا باروتسي ـ قليل الحظ، أناهلدر ـ من هناك؟ ـ خمن! ـ روزنهايم؟ ـ لا! ـ كوستا شيسكو؟ ـ لا ـ هل صار لسانك مثل لسان القط؟

أعلن الخديوي: سوف نقبض عليهم هذا المساء. الملازم وكل أعضاء الشبكة. الكل. هؤلاء الناس يفسدون عملنا.

همس السيد فيليبير:

ـ لم تدلنا على عنوان دولامبال. متى ستقرر، يا صغيري؟ هيا.

ـ دعه ينفخ يا بيبرو.

عاد النور فجأة، رمشت العيون، أنهم أمام المكتب ـ لديّ حلق

جاف ـ لنشرب يا أصدقائى الأعزاء، لنشرب! ـ أغنية، باروتسي! أغنية! ـ كانت هناك سفينة ـ صغيرة ـ أكمل. باروتسي، أكمل! ـ ليس لديها جاجا جاجا لكنها تبحر...

ـ أتريد أن أكشف لك عن وشماتي؟. اقترحت السيدة سلطانة. مزقت مشدها. على كل واحد من ثدييها. هناك هلب بحري. قامت البارونة ليديا ستال وفيوليت موريس بقلبها. وسترتا عريها، قامت، وقامت بعناقهما. وهي تثيرهما مطلقة صرخات خفيضة. تبعتها فيوليت موريس عبر القاعة، حيث، في ركن، كان زيف يلتهم جناح دجاجة ـ ما يخلق متعة للهاث في الأوقات المحددة. هل تعرف ماذا كنت أفعل في هذه الساعة؟ كنت أمام مرآة أدلك وجهي بالقرطم السميك! تساوى اللفافة من القرط السميك ١٥٠٠٠ فرنك (أطلق ضحكة عالية) اقترح بولس وهيلدر أيضاً القليل من الكونياك! سنجد المزيد، ربع لتر يساوي ١٠٠،٠٠٠ فرنك. سجائر إنجليزية! جائتني مباشرة من لشبونة، الباقة بـ ٢٠،٠٠٠ فرنك.

أعلن الخديو بصوت جاف: ناديني عم قريب يا سيد رئيس الشرطة، ضاعت نظراته تواً في الغبار. صرخ ليونيل دوزيف.

ترنح، وانحنى على البيانو، أفلتت كأسه من بين يديه، امسك السيد فيليبير ملفا في صحبة باولو هاياكاوا باروتسي. وغادر

الأخوان شابوشنيكوف من حول الجرامافون، بينما تأملت سيمون بوكورو في المرآة:

الليل

الموسيقى

القمر

غنت البارونة ليديا وهي تخطو خطوة راقصة، صهل كوب إيفانوف بصوته المتوازن:

ـ اجتماع يفوح بهوس جنسي؟

أخذهم الخديو في الاعتبار حزيناً ـ ناداني السيد رئيس الشرطة!.. ضرب بقبضته فوق المكتب. ولم يعر الآخرون أي انتباه لهذه الحالة المزاجية، وقف، وفتح النافذة اليسرى للقاعة ـ تعالي على مقربة مني، يا صغيري، أنا في حاجة لوجودك! طفل حساس مثلك: دائم التأثر.. أنت تهدىء أعصابي!

شخر زيف فوق البيانو، وتراجع الاخوان شابوشنيكوف عن تشغيل الجرامافون. وفحص الزهريات قليلاً واحدة تلو الأخرى، وهو يعدل من وضع زهور الأوركيد، داعب أوراق الداليا، أحياناً يلتفتون في اتجاه الخديو، ويلقون عليه نظرة تخلو من الخوف. بدت سيمون بوكورو مدهوشة بوجهها في المرآة، واتسعت عيناها البنفسجيتان، وصارت بشرتها شاحبة شيئاً فشيئاً. بينما جلست

فيوليت موريس فوق أريكة من القطيفة إلى جوار السيدة سلطانة وقد مدتا كفوفهما البيضاء إلى كأس ايفانوف.

أعلن باروتسي:

ـ سوف نسجل ارتفاعا عن فولفرام. يمكنني أن أبلغكم به بسعر طيب، أنا في مخدع مع جي ماتس، مكتب مشتريات في شارع فيل ـ جست.

قال السيد فيليبير: أعتقد انهم منشغلون فقط بالنسيج.

قال هياكاو: عاد إلى عهده السابق، باع الشرابات إلى ماسياس ـ ريويو.

سأل باروتسي: هل تفضل الجلد الأخضر؟ لقد زاد سعر البركس[1] عن الألف فرنك.

ـ كلمنا أودشارفي عن ثلاثة أطنان من أقمشة الصوف التي يريد أن يتخلص منها. فكرت فيك يا فيليبير.

ـ ماذا قلت عن ٣٦٠٠٠ لعبة كوتشينة سوف أوزعها في صباح الغد، يمكنك أن تبيعها بسعر كبير. حانت اللحظة، لقد كوم أعداد جريدة شفاربونك آكسيون منذ بداية الشهر.

تفحص إيفانوف كف الماركيز، صاحت فيوليت موريس.

---

(١) جلد عجل مدبوغ بأملاح الكروم.

سألني الخديو:

- ولا كلمة! هل يتنبأ الفنجان بالمستقبل؟ ولا كلمة! - مارأيك يا صغيري؟ إيفانوف يبيع القضيب للنساء! قضيبه الشهير من المعادن الخفيفة! لا يمكنهن المرور به! حالة صوفية يا عزيزي، يستغلهن! انه مهرج عجوز! يستند على أفريز الشرفة، في أسفل مكان هادىء، مثل الموجود في الدائرة الرابعة عشر، المرآة العاكسة تلقي ضوءًا أزرق غريباً فوق الأغصان وكشك الموسيقى - هل تعرف يا صغيري أن الفندق المميز الذي خصصناه هنا قبل الحرب للسيد دوبل - رسبيرو؟

صار صوته غير مسموع شيئاً فشيئاً؟ عثرت في الدولاب على رسائل كان قد كتبها إلى زوجته وأطفاله، كان لديه الإحساس العائلي! خذ، هذه! إنها تشير إلى صورة وجه مكبر طبيعيا بين نافذتين - السيد بل - رسبيرو بنفسه، في زي ضابط من الأتراك! انظر إلى كل هذه الديكورات! إنها على الطراز الفرنسي. اقترح بازوتسي.

- هل هي بمساحة كيلو مترين مربعين بمقياس المحراث! سأبيعها لكم مجاناً! خمسة أطنان من البسكويت الجاف! القاطرات واقفة بلا حركة عند الحدود الاسبانية سوف تحصلون سريعاً على مميزات رفع الحصار، لا أطلب سوى عمولة صغيرة يا فيليبير.

وقف الاخوان شابوشنيكوف أمام الخديو دون أن يجرؤا على الكلام إليه. وأغلق زيف الفم الفاغر. أما السيدة سلطانة، وفيوليت موريس، فقد راحتا تتهدهدان بكلمات إيفانوف: انعكاس النجم... خمسة جرامات مقدسة.. مجدول من الأرض العذبة، أرض بكر غنية، وحيدة الإيقاع، تعزيمية.... من الفصيلة النباتية الفلولية.. لكن سيمون بوكورو اسندت جبهتها على المرآة. وقاطعت السيد فيليبير:

ـ كل هذه الأمور المدبرة لا تهمني.

أحس كل من باروتسي وهاياكاوا بالخيبة وتحركا حتى مقعد ليونيل دوزيف، وربتا على كتفه لإيقاظه، أما السيد فيليبير فقد أمسك ملفاً، وفي يده قلما، بينما أكمل الخديو:

ـ كما ترى يا صغيري العزيز، (كأنه سوف ينهال باكيا) لم تأتني التعليمات، كنت وحدي عندما دفنوا أبي وقضيت الليلة راقداً فوق مقبرته، في تلك الليلة إياها كان الجو شديد البرودة. كنت في سن الرابعة عشر. مستعمرة أسيس[1] الإصلاحية، معركة التلمذة... فرنسس... لا أستطيع أن أقابل سوى أوغاد مثلي.. إنها الحياة...

صاح هاياكاوا: استيقظ يا ليونيل!

أضاف باروتسي: لدينا أشياء علينا أن نقولها.

(١) فرانسوا دو أسيس هو قس إيطالي إصلاحي.

ـ خصصنا لك خمسة عشر ألف شاحنة وطنين من النيكل، لو منحتنا نسبة خمسة عشر في المائة، (رمش زيف بعينيه، ودعك جبهته بمنديل أزرق سماوي) ـ كل ما تريدونه، يصاب بالتخمة وظراط البطن. فأنا لم امتلىء منذ شهرين؟ هذا مدعى للسرور، بزمن محاصر.. توجه بتثاقل نحو الأريكة، ومد يده إلى مشد السيدة سلطانة ـ دار بينهما نقاش ـ بكل قوته، أطلق إيفانوف ضحكة ساخرة صغيرة ـ كل ما تريدونه، أيها الحثالة، كرر زيف بصوت مبحوح، سأل هياكاوا: هل هذا كل ماتريدون؟ ـ هل اتفقنا على صباح الغد يا لونيل؟ هل يمكنني أن أتكلم في هذا مع شيد لوكسي؟ تقدم لك شحنة زائدة من الكاوتشوك.

جلس السيد فيليبير أمام البيانو، وأخذ يتأمل بعض النوتات، وأكمل الخديو:

ـ ورغم ذلك يا صغيري، فأنا دائماً افتقد الاحترام. لا تدخلني، من فضلك، مع الأشخاص الموجودين هنا.

راحت سيمون بوكورو تضع المكياج أمام المرآة، وقد أغلقت فيوليت موريس والسيدة سلطانة أعينهما، وبدا الفنجان ظاهريا كأنه بلع الثريات، ووقف الأخوان شابوشنيكوف على مقربة من البيانو، رفع أحدهما النوتة أما الآخر فقد مدّ قسماً منها إلى السيد فيليبير. همس الخديو:

ـ ليونيل دوزيف، قابلتك ألف مرة عند قرش الأعمال، وعلى باروتسي! وهاياكاوا. كل الآخرين! إيفانوف، ابتزاز البارونة ليديا ستال العاهرة.

فحص السيد فيلييير النوتة. ومن وقت لآخر، يضرب المنظور. ويلقي عليه الأخوان شابوشنيكوف نظرات حذرة. استكمل الخديو:

ـ هل ترى، يا صغيري، كل الفئران التي تستفيد من الأحداث الجارية، كي تصعد إلى السطح! أنا نفسي؟... هذه قصة أخرى! لا تثقوا بالمظاهر! سوف أستقبل، في هذه القاعة، الشخصيات الأكثر احتراماً في باريس، يسمونني السيد الحاكم! السيد رئيس الشرطة. هل توافقون؟ ثم استدار وأشار إلى صورة طبيعية كبيرة، أنا أيضاً! ضابط السباهي! انظروا إلى الديكورات! وسام شرف! صليب سان ـ سيكلر! صليب سان ـ جورج الروسي! دانييل مونتنجرو (الجبل الأسود)، برج وسيف البرتغال! ليس لديّ شيء كي أرغب السيد بل ـ سبيرو! أستطيع أن احتفظ له بالملابس الغالية.

قرقع حذاؤه.

وساد الصمت فجأة.

بدأ الفالس يعزف، وتتابعت النوتة بتردداتها، تمتد، وتنزلق نحو زهور الداليا، والأوركيد، يقف السيد فيلييير عند أقصى اليمين، وقد أغلق عينيه. سأل الخديو:

ـ هل تسمع، يا طفلي. انظر إلى أياديهم: يمكن لبيير أن يعزف ساعات وساعات دون أن يتعثر، لم يصب بالتشنج أبداً! إنه فنان.

هزت السيدة سلطانة رأسها بخفة، وعند أول اتفاق. خرجت من فتورها. أما فيوليت موريس فقامت، ورقصت حتى الطرف الآخر من القاعة، بينما صمت بادكوهاياكاوا وباروتسي، أما الأخوان شابوشينكوف فالفم فاغر، بدا زيف بنفسه كأنه منوم مغناطيسياً على يديّ السيد فيليبير الذي استبد به الجنون على سلسلة المفاتيح. أما إيفانوف فقد تطلع إلى السقف، وقد أطلق لحيته، لكن سيمون بوكورو أنهت مكياجها أمام مرآة فينسيا كأن شيئاً لم يحدث.

وقف ضد الاتفاقات بكل قوته، ورفع جذعه، واحتفظ بعينيه معلقتين، بينما استمر الفالس شيئاً فشيئاً. سأل الخديو:

ـ هل تحب، يا صغيري؟

أغلق السيد فيليبير البيانو فجأة، وقام وهو يفرك يديه، ومشى نحو الخديو، وبعد لحظة:

ـ لقد وخزنا شخصاً ما، إنه هنري الذي قام بتوزيع منشورات، قبضنا عليه متلبساً، برتون، وركرو ينشغلان به في الكهف.

اندهش الآخرون أيضاً بالفالس. لم ينطقوا بكلمة، فظلوا ساكتين. في الناحية الأخرى، حيث تجاوزتهم الموسيقى. همس الخديو:

ـ أكلمه عنكم، يا بيير، أخبرتك انك غلام حساس، مولع بالموسيقى بعيداً عن الثنائيات، فنان....

ـ شكراً، شكراً، هنري، مضبوط. كم أكره الظلمات الكبرى! عليك أن تشرح لهذا الشاب إنني رجل شرطة، وليس أكثر!

ـ رئيس شرطة فرنسا، كما قال الوزير!

ـ كان هذا منذ فترة طويلة، يا هنري!

ـ في ذلك العمر يا بيير، كان عليّ أن أخاف منك! المفتش فيليبير! هو.. لا..! عندما سأكون رئيساً للشرطة، سأعينك مسؤولاً يا عزيزي.

ـ صه!

ـ ورغم ذلك أنت تحبني؟

صرخة، ثم صرختان، فثلاثة، بالغة الحدة، دقق السيد فيليبير في ساعته ـ ثلاثة أرباع ساعة، عليه أن يقرقع! سوف أرى! اندمج الأخوان شابوشنيكوف في الخطوة، أما الآخرون فلم يسمعوا شيئاً تقريباً.

أعلن باولو هياكاوا إلى البارونة ليديا وهو يمد لها كأس شمبانيا: هل أنت الأجمل ـ حقاً؟

تبادلت السيدة سلطانة وإيفانوف النظرات، وتقدم باروتسي خطوة نحو سيمون بوكورو، لكن زيف ركله نحو الممر. وانسحب

باروتسي مع وقوع زهرية الداليا، هل يريد أن يلعب دور الشجعان؟ أثار ذلك انتباه ليونيل البدين؟ انفجر ضاحكا وهو يلوح بمنديله الأزرق السماوي، همس الخديو:

- إنه النموذج الذي جدده. حامل المنشورات! انشغل به! انتهى بالهزيمة يا عزيزي هل تود رؤيته؟ - في صحة الخديو! صرخ ليونيل زيف إلى المفتش فيليبير، أضاف باولو هاياكاوا وهو يداعب عنق البارونة، التي أطلقت صرخة، ثم أثنتين، ونحيباً طويلاً، زعق الخديو:

- تكلم أو الموت!

لم يعره الآخرون أي انتباه، عدا سيمون بوكورو التي تضع مساحيقها أمام المرآة، استدارت. وبرزت عيناها البنفسجيتان خارج الوجه، وانسحب أحمر الشفاة إلى ذقنها.

عدة دقائق من الموسيقى. انطفأت في اللحظة التي كنا فيها نعبر مفترق الطرق كاسكاد. كنت أقود. كوكولاكور وآزميرالدا يستندان على السياج، قبل هذا. انزلقنا بطول طريق «البحيرات». بدأ الجحيم في أطراف الغابة: نهج لانس، نهج فلاندرين. طريق هنري - مارتان. هذا الحي السكني هو الأكثر رهبة في باريس، الصمت الذي كان يسود سابقاً. بدءاً من الثامنة مساء كان لديه شيء ما من اليقين. صمت برجوازي في البلدة، والقطيفة وتربية جيدة. يمكن أن

نتصور الاسم، وقد تجمعت في القاعة بعد العشاء، الآن، لا نعرف ماذا يحدث خلف واجهات البيوت الداكنة. من وقت لآخر، تقابلنا سيارة مطفأة الأنوار تماماً، وكم أخشى ألا تتوقف، وتسد الممر.

سلكنا طريق هنري مارتان، تكاد آزميرالدا أن تنام. مرت إحدى عشرة ساعة. البنات المسنات يجدن صعوبة في الاحتفاظ بالعيون مفتوحة. تتسلى كوكولاكور بالسبورة، أدار مفتاح TSF. يجهلون واحداً تلو الآخر، كم هي هشة سعادتهم، أنا وحدي الذي ليست له أهمية. كنا ثلاثة أطفال يركبون سيارة ضخمة في عتمة تامة، وبالمصادفة هناك ضوء يطل من إحدى النوافذ، لم يكن عليّ أن أتباهى بنفسي. أعرف جيداً هذه الناحية، كلفني الخديو بالعثور على الفنادق الخاصة كي يأخذ منها مقتنيات فنية. فنادق الإمبراطورية الثانية، «جنون» «الثامن عشر»، «فنادق ١٩٠٠ الزجاجية» أشباه القصور القوطية. لم يبق فيها سوى حارس متوحش من عصر الملكية، ضغطت جرس الباب، كشفت عن بطاقة الشرطة وفحصت الأماكن، أحتفظ بذكرى النزهات الكبرى: مايوه، بيت الصيادين، قاعة استقبال حسبما كانت مراحلي.. جلست فوق مقعد خشبي، في ظل شجرة كستناء، لا أحد في الشارع. يمكنني أن أزور كل بيوت الحي، فالمدينة تخصني.

في ميدان تروكاديرو، وإلى جانبي كوكولاكور وآزميرلدا، هذان

الرفيقان الحجريان، مثلما كانت تقول لي أمي: «نحن نحصل على ما نستحق من أصدقاء»، بماذا أجيبها أن الناس كثيرون والثرثرة على ذوقي ولا أحتمل رذاذ الأفواه الزرقاء الذي يخرج من الشفاة. يصيبني هذا بالصداع، ويقطع النفس البالغ القصر. الملازم، مثلا هو سبب الذهول. في كل مرة أدخل إلى مكتبه. يقوم ويبدأ حديثه بـ «صديقي الشاب.. أو.. صغيري الشاب». ثم تتتابع الكلمات بشكل هذياني دون أن يأخذ الوقت في حسبانه وهو يلفظ الرذاذ. ثم يبطء كلامه، لكن من الأفضل أن تكتسحني الليلة التالية، يكتسب صوته نغمات أكثر وأكثر حدة. في النهاية يزقزق، وتتخشن الكلمات في حنجرته. يطرق على قدمه. ويحرك ذراعيه، ويتشنج، يهتز فجأة ويستعيد خطبته بصوت له نفس الوتيرة، وهو يركز على من الجمجمة، يا عزيزي.. التي يهمس بها لدرجة الإنهاك.

قال لي في البداية: «أنا في حاجة إليك. سوف تؤدي عملاً جيداً. سوف أظل في الظل مع رجالى. مهمتك: هي أن تتداخل عند خصومنا. وسوف تخبرنا بقدر الإمكان عن نوايا هؤلاء الأقذار». وأشار لي بوضوح إلى سلطاته: نسب إليه وإلى رئيسه النقاء والبطولة، وإليّ. القواعد الأساسية للجاسوسية، ولعبة الجاسوسية المزدوجة. في هذه الليلة.. «عاودت قراءة مختارات كتاب الخونة من السيبياد إلى الكابتن دريفوس». بدا لي أنه بعد كل شيء، فإن المهمة مزدوجة و ـ ولم لا؟ ـ الخيانة المتوافقة مع

سماتي كعفريت. ليست لديّ قوة روحية كافية كي يضعني في مصاف الأبطال. الكثير من اللامبالاة والحيرة لإعداد وغد حقيقي. يتسم بالمرونة، وخفة الحركة، واللطف المطلق.

اجتزنا طريق كليبر. يتثائب كوكولاكور، وقد نامت آزميرالدا وانحنت برأسها فوق كتفي. لقد حان وقت نومهما، سلكنا طريق كليبر في هذه الليلة، نفس الطريق بعد أن خرجنا من «الساعة الرمادية». كباريه شانزليزيه. إنسانية بالغة الرخاوة ملتصقة حول موائد من القطيفة الحمراء، وعلى مقاعد، أمام البار: ليونيل دوزيف، كوستاشيسكو، لاستاذ، ميتود، السيدة سلطانة، أودشارفي. ليديا ستال، أوتو دوسيلفا. الأخوان شابوشنيكوف. ظل رطب، تفوح عطور مصرية. هناك أيضاً في باريس بعض الجزر الصغيرة التي تجاهد بنسيانها. «الكارثة تمت في الأيام السالفة»، حيث كسدت بهجة الحياة ونزق ما قبل الحرب. آخذاً في الاعتبار كل هذه الوجوه، كررت على نفسي عبارة قرأتها في مكان ما: «البذخ يبطيء الخيانة، والاغتيالات..» وإلى جانب البار يدور جرامافون:

عمت مساء

ياسيدتي الجميلة

جئت لأقول

عمت مساء

جذبني الخديو والسيد فيليبير للخارج. حيث سيارة بنتلى بيضاء تنتظر في آخر الشارع. ماربوف، أخذوا أماكن إلى جوار السائق. جلست على مقعد بالخلف. وراحت تتقيأ برقة ضوءاً ضارباً إلى الزرقة، أعلن الخديو وهو يشير إلى السائق: ـ لا يهم. أن يرى في الظلام.

قال لي السيد فيليبير وهو يمسك ذراعى: في هذه اللحظة، هناك الكثير من الامكانات لشاب، يجب أن نختار أفضل جزء، وأنا أرى جيداً أن اساعدك، أيها الشاب الصغير. نحن نعيش في عصر خطير. لديك أيادى بيضاء وطويلة. تتمتع بصحة وعافية. انتبه. إذا كانت عندى نصيحة لك. فهي الا تلعب دور الأبطال، كن هادئاً. أعمل معنا: هذا هو، حيث الشهيد، والمصلح ـ علامة كرش صغير جداً. على سبيل المثال. الا يعني هذا لك بشيء؟، ـ سألني الخديو ـ وقد كوفىء بكل اتساع. أضاف السيد فيليبير. وبشكل قانوني جداً. سنمنحك بطاقة شرطة وتصريح بحمل سلاح ـ الأمر هو أن تدخل في شبكة للمقاومة كي تهدمها. سوف تخبرنا بكل سلوك هؤلاء السادة ـ بأقل قدر من الحرص، لن يشكوا فيك أبداً ـ يبدو لي أنك سوف تمنحهم الثقة ـ وانهم سوف يبوحون لك باعترافاتهم بدون قصد ـ لديك ابتسامة محايدة ـ وعينان جميلتان، يا صغيري! ـ للخونة دوماً نظرة واضحة. وفي النهاية، فإن لديّ الإحساس أنهم يتكلمون في نفس اللحظة. هذه النحل من الفراشات

الزرقاء التي تخرج من أفواههم... كل ما يريدونه اشارات قاتل بالأجر، شريطة أن يسكت أحياناً ويتركني أنام. علامة خائن، قاتل، فراشة. قرر السيد فيليبير:

ـ سوف نأخذكم إلى مقرنا العام الجديد! انه فندق عام ٣ مكرر، ميدان سيماروزا. أضاف الخديو: سنقيم فيه مأدبة مع كل أصدقائنا:

تمتم السيد فيليبير: البيت، البيت الجميل.

عندما دخلت القاعة، فإن الجملة الغامضة أعادت لي الذاكرة: «الثراء الفاسد أبطأته الخيانة والاغتيالات». كانوا جميعهم حاضراً. وجاء آخرون، في كل لحظة، سكب لهم دانوس، كوديبو، ريكورو، فيتال ـ ليكا. روبير لوبال.. والأخوان شابوشنيكوف، الشمبانيا. همس لي الخديو: اقترح عليكم حديثاً ثنائياً قصيراً. ما هي مشاعرك؟ أنت بالغ الشحوب، كحول؟ مد لي كأساً مليئاً، حتى حافته بسائل وردي، قال لي وهو يفتح النافذة يجذبني نحو الشرفة: أنا، ابتداء من اليوم سيد إمبراطورية. لايتعلق الأمر فقط بخدمات الشرطة الإضافية، سوف نمارس أعمالاً عديدة! نتدخل في أكثر من خمسمائة مساعد قناص! سوف يساعدني فيليبير في جزء إداري! سوف أنتهز الأحداث الغريبة التي عشناها الشهور الأخيرة! كانت الحرارة ثقيلة للغاية لدرجة أنه غشى البخار زجاج القاعة. أتى لي من جديد بكأس من السائل الوردى الذي شربته وأنا

أجرب مشاعر التلذذ ـ ثم داعب خدي بظهر يده، يمكنك أن تعطيني نصائح، وأن ترشدني أحياناً. لم تأتني أي تعليمات (راح يتكلم بصوت خفيض شيئاً فشيئاً) في أربعة عشر، فإن المؤسسة الاصلاحية لـ «أسيس» ثم معركة التلامذة الصغيرة، والأقصاء... لكنني عطش للإحترام. هل تسمعني؟ ترمش عيناه. غاضباً قال: «سأكون قريباً رئيس الشرطة! سينادوني السيد الرئيس!».. وبدأ يخبط فوق أفريز الشرفة بقبضتيه: «السيد الرئيس.. السيد الر ـ ئيس!..، وسرعان مازاغت نظرته في الهواء.

فى أسفل الميدان، كانت الأشجار تفوح. انتابتني الرغبة في الرحيل لكن كان الوقت متأخراً. بلاشك، لمسني بقبضته، صار عليّ أن أتخلص منه. كان يجب أن أجتاز القاعة، وأن أجد لي ممراً عبر هذه المجموعات المتواصلة، متكبداً هجوم مليون زنبور يطن، ما يسبب الدوار. دوائر واسعة مضيئة تدور بقاياها بسرعة أكثر وأكثر ويخفق قلبي لدرجة التوقف. أمسكني من ذراعي، وسحبني وأجلسني فوق الأريكة: هل أصابك توعك؟

الأخوان شابوشنيكوف ـ كم كان ذلك منضبطاً؟

جريا هنا وهناك، اخرج باروتسي من فوطة سوداء عدداً من الشيكات البنكية وأشار إلى السيدة سلطانة. على مسافة بعيدة نوعا. رشيد فون روزنهايم. باولو هاياكاوا. وأودشارفى يتكلمون وهم

يلوحون. والبعض الآخر لا أستطيع أن أميزه، يبدو لي أن كل هؤلاء الناس يطحنون في الميدان بسبب رغباتهم البالغة الكبر، وحركاتهم المتتابعة والعطور الثقيلة التي تفوح منهم. مد لي السيد فيليبير بطاقة خضراء ذات أطراف حمراء ـ من الآن أنت جزء من الخدمة: أسجلك باسم «سوينج تروبادور». أحاطوني وهم يرفعون كؤوس الشمبانيا «فى صحة سوينج تروبادور!» صاح ليونيل دوزيف وانفجر في ضحكة عالية جعلت وجهه يحمر، رددت البارونة ليديا ـ في صحة سوينج تروبادور.

فى هذه اللحظة ـ صارت لديّ ذاكرة جيدة ـ استبدت بي رغبة سريعة في أن أسعل. رأيت وجه أمي، يميل نحوى. ومثل كل ليلة، قبل أن تطفىء النور، فإنها تضعني في الفراش: «سوف تنتهي في المدفأة!» ـ «في صحتك يا سوينج تروبادور» كما همس أحد الأخوين شابوشنيكوف ولمس كتفى بحذر. وبدا لي الآخرون من كل الجهات، كأنهم يعفون حولي، كالذباب.

طريق كليبر، تكلمت آزميرالدا أثناء نومها، دعك كوكولاكور عينيه، لقد حان الوقت بالنسبة لهما كي يناما، لايعرف أحدهما الآخر، كم أن السعادة هشة لنا نحن الثلاثة، أنا فقط لا أبالي.

قال الخديو: آسف، يا صغيري. لأنك سمعت هذه الصيحات،

أنا لا أحب العنف، ولكن هذه الأشياء الشخصية توزع المنشورات.. وهذا أمر بالغ السوء.

نظرت سيمون بوكورو من جديد إلى المرآة ولمست مكياجها. أما الآخرون فقد تخففوا، وقوبلوا بحفاوة تتوافق تماماً مع الأماكن. نحن في قاعة برجوازية، بعد العشاء، في لحظة المشاريب المعتقة اقترح الخديو:

ـ هل أقدم لك كحولاً إضافياً يا صغيري؟

نظر إليّ كأس إيفانوف، وهو يمارس على النساء سلطة افرودية:

ـ الـ «فترة المزدوجة» التي نمر بها.

ـ أغلب هؤلاء الناس يجب أن ينسوا رائحة الكونياك في هذه الأزمنة المقيدة، ضحك ليونيل دوزيف ساخراً. خسارتهم! ـ همس إيفانوف: ـ ماذا تريدون؟ عندما يبلغ العالم انسياقه... انتبه. يا صديقي العزيز، فأنا لن أستغلها. كل شيء وله قاعدة معى.

بدأ بولس دوهيلدر: من جلد العجل.

علق بلاروتسي: عربة بأكملها من الفولفرام...

أوجز جان ـ فاروق دوميتود: أنقص خمسة وعشرون في المائة.

دخل السيد فيليبير القاعة بشكل مهيب وتوجه نحو الخديو ـ لنرحل خلال ربع ساعة. هنري أول موضوعي: الملازم، ميدان شاتليه. ثم، أعضاء الشبكة الآخرين، وجه إليهم كلامه بكل احترام.

سوف يصطحبنا الشاب! أليس كذلك، يا صغيري سوينج تروبادور؟ جهز نفسك! خلال ربع ساعة! ـ نقطة كونياك كي تلهمك الشجاعة. يا تروبادور؟

وقف أحد الأخوين شابوشنيكوف كما اقترح الخديو. أضاف السيد فيليبير: ولا تنس إبلاغنا بعنوان لامبال. مفهوم؟ لكن كم عددهم بالضبط؟ وسط الغرفة وقد أسند الكمان على خده، وصدح بحنجرته، ثم بدأ في الغناء بصوت جميل.

ليس

فقط

من الحب

لمس الآخرون الايقاعات وهم يصفقون بالأيدي، يتحرك الكمان ببطء شديد، الأوتار رائحة غادية، بخطوات حثيثة أيضاً.. وتسارعت الموسيقى شيئاً فشيئاً.

الحب

اتسعت دوائر مضيئة مثلما نلقي حجراً في الماء، بدأوا يدورون عند قدمى عازف الكمان حتى بلغوا جدران القاعة.

هناك

على وجه الأرض

نفخ المطرب ريتال وهو يختنق بعد أن ألقى صيحته الأخيرة،

جرت فوق الأوتار، بسرعة ملحوظة. يمكن أن يتبعوه لفترة طويلة بتصفيقاتهم.

فى هذا العالم

القاعة تدور الآن، تدور، ويبقى عازف الكمان وحده ساكناً.

ليس فقط بساتين

يوجد منها الكثير

وأنتم أطفال، كنتم تخافون دوماً من أمور المنزل التي سرعان ما تذهب، وما يسمونه دود الفراش لعلكم تتذكرون...

تطلقون الصيحات، لكن هذا لا يفيد في شيء، فقد أكملت العربات الدوران.

يوجد من هذا الكثير

سوف تصعد بالتأكيد في هذه العربات، لماذا؟

أنا أكذب أيضاً

قاموا وهم يضربون الأكف.. والقاعة تدور وتدور، كأنها عيون ترمش. سوف يفقدون التوازن، أواني الزهور سوف تتحطم فوق الأرض، وعازف الكمان يغني بصوت متعجل.

أنا أكذب أيضاً

وتطلقون الصيحات، لكن هذا لن يجد في شيء. فلا يمكن لأحد أن يسمعكم وسط جلبة الدار.

هكذا يجب أن يكون كثيراً

وجه الملازم، عشرة، وعشرون وجه آخر ليس لديهم الوقت للتعارف. تدور القاعة بسرعة أكبر، مثلما كانت عربة «السيروكو» تدور في حديقة اللونابارك.

وخلال خمس دقائق، استدارت بسرعة فلم تميزه وجوه الذين ظلوا فوق المنصة ينظرون.

هذا يعجبني

ورغم ذلك، أحياناً، تخطف في الممر أنف، يد. ضحكة، تنطلق أسنان أو عينان كبيرتان مفتوحتان. عينا الملازم الزرقاوان ـ السوداوان. عشر، أو عشرون وجه آخر. ما يعني توفر العناوين تواً، وأنه سوف يتم القبض عليهم في الليل. لحسن الحظ، فقد انسحبوا بسرعة، بنفس إيقاع الموسيقى ولم تعد لديهم فرصة تقديم فاتورة عن ملامحهم.

والحب شيء صعب

تسارع صوتها أيضاً، وتعلقوا أكثر بالكمان، لديها الإحساس انها تائهة في فيضان...

أحب الكل

بينما الآخرون، يضربون، يضربون، يضربون بأيديهم، وتنتفخ وجناتهم، وتبدو عيونهم مجنونة، سوف يموتون بالتأكيد أثر سكتة دماغية...

أنا أكذب أيضاً

وجه الضابط، وعشرة، عشرون وجهاً آخر نحدد الآن ملامحهم. سوف يتوقفون فجأة.. يقال انهم سيسألونكم الحساب. وخلال بضعة دقائق، لم يشعر أحد بالندم بسبب اعلان العناوين، وأمام هؤلاء الأبطال الذين يفحص نظرتهم الواضحة، فقد حاول أن يصرخ بصوت أعلى من كيانه كجاسوس، لمع بريق وجهه شيئاً فشيئاً. فقدوا عجرفتهم وانطفأت الثقة الجميلة التي تبرق مثل شمعة تم النفخ فيها. انزلقت دمعة فوق خد كل منهم. وبدت أخرى معلقة على الرأس، ألقيت نظرة جديدة، وأخرى، وتجددت بدهشة، كأنه لم ينتظر من جانبك سوى هذا.

ينعكس كل هذا الحب في الماء

استدارت وجوههم، استدارت ببطء شديد في الممر، حيث يهمسون لك بعتاب رقيق، ثم، وبنفس الطريقة استداروا. وتضادت ملامحهم. لم ينتبهوا إليك، عيونهم وأفواههم تعبر عن خوف شديد، فكروا بالتأكيد فيما ينتظرهم. وصاروا هؤلاء الأطفال، الذين ينادون أمهاتهم في الظلام لنجدتهم.

أنا أكذب أيضاً

أنتم دوماً لديكم اللطف الذي تستحقونه، واحد منهم يقرأ لك رسالات خطيبته.

ينعكس كل هذا الحب في الماء

وآخر يرتدي حذاء من الجلد الأسود، وثالث كان يعرف اسم كل النجوم، والندم. هذه الوجوه لن تنتهي بالدوران، ومن الآن فصاعداً، سوف تنام بشكل سيء، ولكن عبارة الضابط سوف تعود إلى ذاكرتك: «أعضاء شبكتى تورموا تماماً، سوف يموتون كما يجب، دون تهشم الاسنان»، وهكذا، من الأفضل، وجوههم تتجمد من جديد، عينا الملازم الزرقاوين السوداوين. عشرة، عشرون نظرة أخرى معبقة بالازدراء، طالما أنهم يريدون تجاوز الجمال، الذي اخترقونه!

فى الأنهار الصغيرة

لقد قتل، ووضعوا كمانه فوق المدفأة، هدأ الآخرون رويداً رويداً. يستبد بهم نوع من الفتور والتمرغ فوق الأريكة ومقاعد الفوتيه ـ همس الخديو: أنت شاحب، يا صغيري. لا تترك نفسك للعاطفة، فضربة الشبكة سوف تتم بكل مهارة. من الرائع أن تجد نفسك في شرفة بشكل حر. أو أن تنسى للحظة هذه الغرفة، وما

بها من رائحة الزهور، والثرثرة، والموسيقى التي ستجعلك تدوخ، ليلة صيف، بالغة الرقة وصامتة لدرجة أنك ستتصور نفسك محبوباً.

ـ بكل تأكيد، نحن نقدم كافة مظاهر السطو. الرجال الذين استخدمهم وأساليبنا الوقحة.. والفعل الذي أفضى إليك بالعمل كجاسوس. أنت الذي لديك سحر الطفل الصغير يسوع، كل هذا لا يتعارض مع أفضليتنا، هه...

سبحت الأشجار والكشك في الميدان في ضوء أحمر ـ في هذه الإنسانية الجادة التي تحفر حول ما أسميه «مستودع»، مسألة عمل. نصف اجتماعي. مفتشوا الشرطة ـ وأخيراً كل هؤلاء الماركيزيين. والكونتيين، والبارونات والأمراء الذين ليسوا في الجوتا.

فى أسفل، أو بطول الرصيف. شريط من السيارات، يخصهم، يصنع بقعا داكنة في الليل.

ـ أفهم كل هذا أقل تأثيراً في شاب حسن التربية. لكن (وصارت لصوته نغمة غاضبة). ستجدون أنفسكم هذه الليلة في صحبة أشخاص أقل ملائمة، وهذا رغم أنفك كطفل في الكورس.. (بالغ الرقة)، لأننا من نفس العالم، يا سيدي.

أحرق ضوء الثريا وجهه، الفتائل مثل حمض. تقاطعت ملامحهم، البشرة تتصلب ستأخذ رؤوسهم بلا شك أشكال العضلات لهؤلاء الذين يجمعون الهنود جيفاروس. رائحة زهور،

ومن اللحم الذابل. وقريباً. لن يبقى شيء من هذا التجمع سوى فقاعات صغيرة تتلألأ فوق سطح بركة، وهنا فإنهم يتعثرون في وحل وردي اللون ويرتفع السطح حتى جباههم. فلا يصبح أمامهم وقت طويل للعيش. أعلن ليونيل دوزيف:

ـ نحن هنا نشعر بالملل.

قال السيد فيليبير: حان وقت الرحيل. المرحلة الأولى إلى ميدان شاتليه، الملازم!

سأل الخديو: هل جئت يا صغيري؟ في الخارج الضوء معتم كالعادة. وسوف يعاودون الرحيل حسب ظروف السيارات ـ ميدان شاتليه! البوابات تقرقع وتتفكك. وهم يسقطون ـ لا تتجاوزوهما يا إيدي، أمر الخديو. رؤية كل هؤلاء الشجعان ترفع معنوياتي.

تنهد السيد فيليبير: وقال إننا سوف نتدخل في هذه العصابة المنحلة! ـ قليل من التسامح. بيير، نحن نعمل معهم. انهم شركاؤنا في السراء والضراء.

طريق كليبر، ضغطوا على نفير السيارة. امتدت أذرعتهم خارج البوابات، يحركونها، يضربون الهواء، تحركوا يميناً ويساراً، وانزلقوا وهم يتصادمون بخفة. انهم يخاطرون أكثر. يثيرون الضجيج وسط الظلام، شانزليزيه. ميدان الكونكورد وشارع ريفولي. نتوجه

إلى حي أعرفه جيداً. قال الخديو: انه حي القاعات (هولز)، حيث عشت مراهقتي في جر عربات الخضروات...

اختفى الآخرون. ابتسم الخديو وأشعل سيجارة بولاعته الذهبية الغليظة. شارع كاستجليون. مستعمرة ميدان فنروم كما يخمنون، على اليسار. ميدان الأهرامات. تتحرك السيارة ببطء شيئاً فشيئاً، كأنها وصلت إلى أطراف الحدود. تمر في شارع اللوفر، تبدو المدينة كأنها أصيبت فجأة بالإرهاق. علق الخديو:

- نحن ندخل إلى بطن باريس...

في البداية، رائحة غير محددة، لكنك سوف تعتاد عليها شيئاً فشيئاً. أنت تأخذ في الحسبان أن زجاج البوابات مغلق. عليهم أن يحولوا الصالات (هولز)، إلى المسلخ.

كرر الخديو: «بطن باريس».

انزلقت السيارة فوق البلاط السميك، وقد أغرقت الرشاشات سطوحها، بالطين؟ أم بالدم؟ على كل حال. شيء ما دافيء.

عبرنا جادة سباستوبول وانطلقنا فوق فناء كبير، نضرب كل المنازل، نحوط بهم. ولم يبق منها سوى جداران مع بضعة قصاصات ورق ملون. في المخلفات التي تركوها. نظن انها حلت مكان السلالم. والمداجن، والأسقف. وفضاءات الغرف، والناحية التي يوجد فيها السرير، كانت توجد هنا مدفأة، وحوض هناك،

يفضل البعض بتلات الزهور، أما الأخرى فهي على نسق أقمشة جوي. اعتقدت أنني سأرى صبغات ظلت معلقة على الحائط.

ميدان شاتليه، مقهى زيللي حيث يجب أن يقابلني الملازم، وسان جورج في منتصف الليل، أي فضاء سوف يتبناني عندما سيتحركون ناحيتى؟ ظل الآخرون حول المائدة عندما دخلنا. الخديو، وفيليبير وأنا، سرعان ما أحاطوا بنا. من سيكون أول من يمد يده للمصافحة، يتلهفون علينا ويعانقوننا ويعززوننا. غطى البعض الوجه بالقبلات، وداعب الآخرون العنق، وجذب آخرون برقة ستراتنا، عرفنا جان فاروق دوميتود، فيوليت موريس، والسيدة سلطانة ـ كيف حالكم؟ سألني كوستاشيكو، اتخذنا لأنفسنا ممراً عبر المجموع الذي تشكل. سحبتني البارونة ليديا إلى مقعد يجلس فوقه رشيدفون روزنهام، وبولس دوهيلدر، والكونت باروتسي، وليونيل دوزيف. سألني بولس دوهيلدر: أتريد قليلاً من الكونياك؟ لم يعد منه في باريس. سعر الربع لتر ألف فرنك. اشرب! ودفع عنق القنينة بين الاسنان.دس فون روزنهايم سيجارة انجليزية في فمى وأشعل ولاعة من البلاتين المرصع بالزمرد. خفت الضوء شيئاً فشيئاً. وغاصت حركاته وصوته في ظلام رقيق، وعلى الفور، مع وضوح غريب، بدا لي وجه الأميرة دولامبال أشبه بحارس قومي جاء يبحث في سجن القوات المسلحة.

قومي يا سيدتي، يجب أن نذهب إلى «الآباي»، أمامى وخزاتهم

ووجوههم مليئة بالتعبيرات لماذا لم تهتف: «عاش الوطن! مثلما طُلب منها»؟ إذا حك أحدهم جبهته: «زيف؟ أم هاياكاوا؟ أم» روزنهايم؟ أم فيليبير؟ أم الخديو؟ سيكلفني أن أذوق بقعة دم من أجل أن تتسارع القروش؟ لاتتحرك أكثر، تهتف أكثر من مرة بما ترغب: «يحيا الوطن!»، تقوم بتعريتى، عند الضرورة. كل ما تريدونه! ودقيقة أخرى، السيد الجلاد. لا يهم الثمن. دس روزنهايم من جديد سيجارة انجليزية في فمى. هل حكوم عليّ بالموت؟ بشكل ظاهري. الإعدام ليس لهذه الليلة. كوستا شيكو، زيف ميلدر وباروتسي شاهدون عليّ بكل حفاوة، انهم قلقون على صحتى. هل لديّ ما يكفي من نقود في الجيب؟ بالتأكيد، فالواقعة موجهة إلى الملازم وكل أفراد شبكته، تجلب لي مئات الآلاف من الفرنكات التي جعلتني أشتري بعض الإيشاربات من عند شارنيه، ومعطف هنري فيكوني لزوم الشتاء. على الأقل فإنهم لن يصفوا حسابي هنا أو هناك، الجبناء، كما يبدو لديهم موت مثير للخجل. يقول لي الطبيب أنه قبل موت أي إنسان فإنه يتحول إلى صندوق موسيقى. ويسمع في تلك الأثناء جزءً من الهواء النقي. الذي يتناسب مع أحسن ما فعله في حياته. وسماته، وجاذبيته. للبعض، إنه فالس القربة، وللبعض الآخر عرض عسكري. يدندن الآخر بأغنية غجرية تنتهي بالنحيب، أو صرخة تعذيب، أنت أيها الشاب الصغير سوف تكون الضجة أشبه بصندوق قمامة يرسلونه عندما يحل الليل فوق

أرض متموجة. وفجأة عندما تعبر هذا الفضاء، إلى الناحية الأخرى، حيث يوجد فريق سباستوبول. فكرت: «هنا سوف تنتهي مغامراتك». تذكرت رحلة في طريق رقيق قادتني إلى هذه الناحية. واحد من أكثر الأماكن وحشة في باريس. بدأ كل شيء في غابة بولوينا. هل تتذكر؟ تلعب الطوق فوق مروج برية كاتلان. تمر السنوات. وأنت تجتاز طريق هنري ـ مارتان، وتجد نفسك في التروكاديرو. ثم ميدان الاتوال. أمامك طريق. محفوف بالمرايا المعتمة تبدو لك أشبه بصورة المستقبل: محملة بالوعود الجميلة ـ كما يقال. يضرب الثمل أنفاسك عند عتبة الطريق الملكى، لكن الأمر لا يخص سوى شارع الشانزليزية على أذرع كوزموبوليتانية، وفندق كلاريدج، وفندق ملتقى الأجانب يسكنه شبح سفانسكي. الحزن في ليدو. مراحل محزنة في لونوكيه و الكوليزية أو ميدان الكونكورد، ترتدي حذاءً من الجلد الفخم، رابطة عنق من الحبوب البيضاء وخيشوم الديوس الصغير، وبعد دورة في حي مادلين أوبرا.. كل شيء حقير أكثر من «شانزليزيه» وتتابع رحلتك ما يسميه الطبيب: ت ك و ى ن ا خ لا ق ى تحت رواق شارع ريفولي. كونتننتال موريس. سان جيمس والباني، وأجرب مهنة فأر فندق، الزبائن الأثرياء يجعلونني أصعد أحياناً إلى غرفهم في الفجر أفتش حقائب اليد. واختلس بعض المجوهرات، بعيداً، رامبل ماير للعطور لأحياء الجلود الذابلة، العمات اللاتى يهاجمن الليل، في

حديقة كاروسيل، من أجل غرز حمالاتهم وكيس النقود، تبدو الزاوية بالغة الوضوح فجأة: هأنذا في الجو الحار. في بطن باريس. حيث تقع الحدود بالضبط؟ يكفي أن نعبر شارع اللوفر أو ميدان القصر الملكى. تغوص نحو الهولر مخترقين الشوارع الصغيرة ذوات الروائح الكريهة، قلب باريس هي غابة مليئة بحيوانات من النيون المتعددة الألوان. حولك سلال خضروات مقلوبة. وظلال تجر أحياء عملاقة من الثيران. بعض الوجوه الشاحبة مزدانة ـ بشكل مهين تتدفق للحظة ثم تتلاشى، من الآن فصاعداً كل شيء ممكن. سيتم تجنيدك لأكبر حاجة جذابة قبل أن تسوى حساباتك بشكل نهائي. وإذا هربت ـ بحيلة أخيرة، فإنها من النذالة ـ إلى كل هذا الشعب من الرعاع والجزارين سوف يعم الظلام. سوف تموت عند مسافة قريبة، على الجانب الآخر من طريق سباستوبول. وسط الفناء. انها الأرض الفجة. كما قال الطبيب. لقد أبلغك هذا بتغيير رحلتك، وأنت غير قادر على العودة إلى الوراء. الوقت تأخر، فالقاطرات لم تعد تسير. ونزهاتنا أيام الأحد بطول الحذاء الصغير، هذا الخط من السكة الحديد التي أُبطل تشغيلها.

استكملنا دورتنا، برج باريس، باب كلينانكور، طريق بريير. ميناء دومير، وعن بعد.. جافيل، حولوا المحطات التي توقفت عن العمل إلى مقاهي، البعض تركوها سليمة وأستطيع أن أتصور أن قطاراً يمر بها بين لحظة وأخرى لكن الساعة، منذ خمسين عاماً،

تتحرك بالوتيرة نفسها، لقد مارست دوماً عاطفة خاصة تجاه محطة أورساي. في البداية أن أبلغ العربات البولمان الكبرى الزرقاء زرقة السماء التي تأخذك إلى أرض المعاد. كأنهم لم يأتوا. أعبر جسر سولفرينو وأنا أدندن بأغنية.. ثم أخرج من مفكرتي صور الدكتور مارسيل بتيو منهمكا فوق مقعد المتهمين، خلفه كل هذه الكومة من الحقائب. آمال. مشاعر مريضة. يسألني القاضي وأنا أشير إليهم: أخبرني. ماذا فعلت منذ شبابك؟ بينما محامى أمي يساندني، لأن أحداً لم يوافق على الدفاع عني... أحاول أقناعه، هو وأعضاء التحكيم، طالما، كنت صبيا يسمح له. «صبي طموح»، واحد من الغلمان الذين يقولون: «لدينا مستقبل جميل». البروفة أن السيد القاضي. والحقائب خلفه بدون علامات مميزة. من الجلد الروسي. السيد القاضي ـ ماذا يمكن أن أفعل بنفسي يا سيدتي. علامات هذه الحقائب يمكن ألا تكون أبداً أجزاء؟ على كل، حكم عليّ بالإعدام، هذا المساء يجب أن تنام مبكراً. وأما الغد، فسيكون يوما ثرياً في الماخور، لا تنس أبداً المساحيق وأحمر الشفاه. جربي مرة أخرى أمام المرآة: رمشة عين أقرب إلى لمسة القطيفة.. سوف تقابلي الكثير من عارضات الأزياء الذين يعرضون البضاعة الأكثر تنوعاً. هؤلاء الخاطئات يسببن لي الخوف، إذا كنت حزيناً عليهم فسوف يقضون عليّ، لماذا لم تصيح: «يحيا الوطن!» كررتها أكثر من مرة كما يريدون، أنا الأكثر رقة من العاهرات ـ اشرب اشرب. قال لي زيف بصوت متوسل سألتني فيوليت موريس: أتريد بعضاً

من الموسيقى؟ توجه الخديو نحوى وهو يبتسم: ـ سوف يصل الملازم خلال عشرة دقائق، ستقول له صباح الخير إذا لم يحدث شيئاً ـ سألت السيدة سلطانة: أغنية عاطفية؟ صاحت البارونة ليديا ا غ ن ى ة ع ا ط ف ى ة!. ثم ستحاولون أن تجروها إلى خارج المقهى ذليلة كئيبة يمكننا أن نعتقلك بكل سهولة، ثم نقبض على الآخرين في مساكنهم ـ رددت السيدة سلطانة: خمسة أقدام اثنان ـ إنها أغنيتي المفضلة ـ ضربة جميلة، أعلنت فيوليت موريس: أشكركم على تعليماتكم. يا صغيري ـ ثم لا! أنا أسمعك يا سوينج تروبادور! أدار واحد من الأخوين شابوشنيكوف يد الجرامافون. ودارت الأسطوانة. جارفة الإحساس أن صوت المطرب سوف ينشرخ بين لحظة وأخرى. ضربت فيوليت موريس التقاليد وهي تهمس بكلمات:

لكن صديقك على السفر

ياسوينج تروبادور المسكين

هل كان الملازم يسبب كل هذه المتاعب؟ في بعض الأيام كنت أسمعه. كان صوته عميقاً حين تبدو ملامح وجهه المرهقة، لم يبق منه أمامي سوى امرأة عجوز تنظر إليّ بكل رقة.

تجمع الورود

وبكل حزن تعد باقة

استولى عليه ملل، واضطرب مثلما أخذ ذلك في الحسبان.

فجأة، لن يستطيع أن يفعل شيئاً بالنسبة لى. كرر: «قلبك مثل فتاة طائشة. فتاة طائشة. فتاة طائشة، فتاة طائشة ١٠٠٠٠٠ أو أن يقول، بلا شك، إنني لست مخلوقاً شريراً» (أحد تعبيراته). أردت أن أشكره، في هذه اللحظات، على لطفه الذي يشهد به. هو جاف للغاية، ورسمى تماماً كالعادة، لكنني لم أجد الكلمات، وفي خلال لحظات بلغت مقطع: ظل قلبي في باتينول.. تمنيت أن تكون هذه الجملة قد عبرت له عن طبيعتي الحقيقية لصبي محبط بما فيه الكفاية. وانفعالي ـ لا ـ نشط ثانوي، وليس شريراً في شيء.

مسكين سوينج تروبادور

مسكين سوينج تروبادور....

سألني ليونيل دوزيف:

ـ توقفت الأسطوانة، أتريد مارتيني بدون ثلج. أيها الشاب؟

اقترب الآخرون مني ـ كآبة جديدة؟ سألني الكونت باروتسي ـ أراك شاحبا تماماً ـ ماذا لو جعلناه يستنشق الهواء؟ اقترح روزنهايم. لم ألحظ صورة بولانيجري الكبيرة، خلف البار. شفتاها لا تتحركان. ملامح وجهها ناعمة وتعطي الانطباع بالصفاء. انها تمثل كل التناقضات في هذا المشهد. اللون الأصفر جعلها أكثر بعداً، بولانيجري لا يمكنها أن تفعل شيئاً من أجلي.

دخل الملازم إلى مقهى زيللي في صحبة سان ـ جورج، قرابة

منتصف الليل، كأنه مهزوم. حدث كل شيء بسرعة، أشرت له بيدي. لم أجرؤ أن أنظر في عينيه. أخذتها خارج المقهى، أحاطهما الخديو: جواري وفيتال ـ ليكاللتو. والمسدس في يده، في هذه اللحظة، نظرت مباشرة إلى عينيهما. تابعني أولا بدهشة، ثم بنوع من الازدراء السعيد. في اللحظة التي مدّ فيتال ـ ليكا الأغلال، تخلصا، وجريا في اتجاه النهج، أطلق الخديو ثلاث طلقات، فهرولا إلى حنايا الميدان وطريق فيكتوريا.

تم القبض عليهما خلال ساعة:

كورفيزر: ٢، طريق بوكيه.

برنتي: ١٧٢، شارع فوجيرار

ياسمين: ٨٣ نهج باستو

أوبليجادو: ٥ شارع ديروك.

بيكبوس: ١٧، طريق فليكس ـ فور

ماريوف ديلبور: ٢٨ نهج بروتي

رحت أدق الباب في كل مرة. كي أمنحهم الثقة، وأنا أخبرهم عن اسمي. ناموا. كوكولاكور شغل حجرة الدار الكبرى. وأسكنت آزميرالدا في غرفة زرقاء تخص بلاشك ابنة المالك، هؤلاء تركوا باريس في يونيه عقب الأحداث... وسيعودون عندما ترجع الأمور إلى نصابها. من يدري؟ الموسم القادم.. سوف نستولي على فندقهم

الخاص، سأعترف أمام المحكمة أنني تدخلت لتدمير هذا المسكن، اصطحبني الخديو، وفيليبير، والآخرون في هذا الوقت. سوف يستعيد العالم ألوانه المألوفة، وستسمى باريس من جديد مدينة النور، وسوف يبدو جمهور الجالسين أشبه بأصبع في الأنف. تعددت جرائمنا، والوشايات، وممرات التبغ، سرقات، واغتيالات، وجرائم من كل نوع ـ أشياء في الساعة التي أكتب فيها هذه السطور ـ أموال سائلة، يمكنها أن تأتي للشهادة حسب مزاجي؟ حصن مونتروج ذات صباح من ديسمبر. مقصلة الاعدام، وكل ألوان الرعب التي ستكتبها مادلين جاكوب لحسابي (لا تقرأي، يا أمي)، على كل حال، فإن رفاقي سوف يقتلوني بدافع الأخلاق، والعدالة. وستعاود الإنسانية الظهور ذات يوم عظيم، لتقربي. أردت أن أترك بعض الذكريات: على الأقل انقل إلى بقية أسماء كوكولاكور وآزميرالدا. في هذه الليلة، سهرت إلى جوارهما، لكن كم مر من الوقت؟ كيف سيصبحان بدوني؟ هما رفيقاي الوحيدان. شخصيات رقيقة وصامتة مثل غزالان. قابلة للإصابة، أتذكر أنني نزعت من مجلة صور قط أرادوا إنقاذه من الغرق. شعره يهتز، وينسال ببطء. حبل يلتف حول العنق حتى الطرف المربوط بحجر لم تعد لي نظرة قط، هكذا أكثر منهم، كوكولاكور وآزميرالدا يشبهانه. اسمعوني جيداً. لست عضواً في جمعية رعاية الحيوان، ولا منظمة حقوق الإنسان ماذا أفعل؟

مشيت عبر مدينة معزولة، في المساء، نحو التاسعة، غاصت في العتمة، أما الخديو وفيليببير. والآخرون فهم قلة شكلوا دائرة حولي، الأيام بيضاء، على وشك أن تتوافق مع حبي لكوكولاكور وآزميرالدا. افترض أن هتلر نفسه سيجرب الحاجة، سيجرب حاجته أن يتمدد ويداعب كلبه «أنا أحميهما». رغم أن عملهما السيء سيكون ضدي أنا. لست الصامت الذي منحني الخديو اياه. كانت جيوبي مليئة بالنقود. عرفت أجمل ما في فرنسا (سرقتها، لكن ليس لهذا أي أهمية في الزمن الذي ينصرم) وزني كشاب ثمانية وتسعين كيلو. عيون القطيفة، شاب «واعد». لكن من يسمح بماذا؟ كل الجنيات تعلقن فوق مهدي، شربن بلا شك. لقد هاجمت بكل قوة. إذن لا تلمسهن! قابلتهن لأول مرة في محطة مترو جرنل وفهمت أنها حركة، ونفس تعاني كي يحطمهن. تساءلت بأى معجزة هن هناك على قيد الحياة. فكرت في القطة التي أنقذت من الغرق. العملاق الأحمر والأعمى المسمى كوكولاكور، والفتاة الصغيرة ـ أو العجوز الصغيرة ـ آزميرالدا. أمام هذين البائسين، جربت الشفقة. غمرني مد عنيف زئبقي اللون، ثم مع ارتداد الأمواج تملكتني غيبوبة: دفعتهما فوق قضيب المترو، كان عليّ أن أغوص بأظافري في الكتوف وتصلبت. أغرقني المد من جديد، وكان تدفق الأمواج بالغ الرقة كي أترك لهما نفسي. وقد أغلقت عيناي.

في كل ليلة. كنت أفتح باب غرفتهما، بكل الرقة الممكنة. أنظر إليهما نائمين. جربت نفس الغيبوبة كما في المرة الأولى، وأطلقت المسدس في صمت من جيبي وقتلتهما. قطعت الرباط الأخير وانتظرت القطب الشمالي، حيث لا توجد منابع للدموع كي أسري عن وحدتي. انسحبت عند أطراف الرموش. حزن جاف. عينان واسعتان مفتوحتان على خضرة جافة. ترددت أيضاً في التخلص من هذا الضرير، وهذه الفتاة الصغيرة ـ أو هذه العجوز الصغيرة ـ هل سأخون الملازم؟ على الأقل، لديه، شجاعته وثقته والقنبر الذي يرقب أقل حركاته. نظرته الزرقاء المباشرة سوف تثير سخطي. انه ينتمي إلى الأبطال، ورغم ذلك لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أراه خلف ملامح امرأة عجوز متسامحة. لا آخذ البشر مأخذ الجد ـ وأنا نفسي ـ بنظرة أطرحها هذه اللحظة ـ على كوكولاكور ـ وآزميرالدا. الأكثر حدة، والأكثر كبرياء. الأمر يخصني، بشأن عجوزين يجب حمايتهما.

مارسوا نصيبهم من لعبة الماهو ـ جونج في الصالة قبل النوم، المصباح يلقي الضوء رقيقا فوق المكتب، وتبدو الملامح الكبرى طيبة للسيد دربل ـ رسبيرو. تبادلا الأماكن ببطء. وأدوات اللعبة، هزت آزميرالدا رأسها، وفحص كوكولاكور فهرسه. وساد الصمت من حولنا، أغلقت النوافذ، ونام كوكولاكور ـ بسرعة بالغة، وظلت آزميرالدا خائفة من الظلام رغم أنني كنت أترك بابها دائماً مواربا،

على ضوء الممر. كنت قريبا منها لربع ساعة تقريباً، دائماً عمل أكتشفه على مائدة حجرتها، عندما أمتلكت هذا الفندق الخاص: كيف نربي بناتنا للسيدة ليون دوديه.. انه موجود أمام الدولاب حيث بدأت الفتاة في تجريب شعورها المهيب تجاه أشياء المنزل، في الواقع، فإن الدولاب ليس سوى نموذج أكثر تمثيلاً للأمن والاستقرار العائلي؟ خلف هذه الابواب السميكة، نرى خطوط ثنايا الستائر الجديدة، والمفارش، والمناشف المطوية بشكل جيد. لا شيء، حسب رأيي، أكثر ملائمة من رؤية دولاب.... آزميرالدا نائمة، وضعت بعض المناشف على بيانو القاعة، واستندت على النافذة، حديقة هادئة مثل التي نجدها في الدائرة السادسة عشر، حيث تداعب أوراق الشجر الزجاج، اعتقدت بسلامة نية أن المنزل يخصني، صارت المكتبة، ومصابيح الأباجورة الوردية، والبيانو مألوفين بالنسبة لى، أردت أن أزرع الفضائل المألوفة مثلما نصحتني السيدة ليون دوديه، لكن ليس لديّ وقت.

سوف يعود الملاك، يوما أو آخر، وهذا يثير انتباهي أكثر. سوف يصطادون كوكولاكور وآزميرالدا. لن أنظر في حسابي. المشاعر الوحيدة التي تحركني هي: الرعب (لأي سبب ستنتابني ألف حالة جبن) والرحمة نحو من يشبهني: إذا أثارت ملامحهم خوفى. فإنني أجدهم، رغم ذلك، أكثر تأثيراً. هل سأقضي الشتاء وسط هؤلاء المهاويس؟ لديّ إحساس سيء. ذهابي وإيابي الثابتين للملازم ناحية

الخديو، والخديو ناحية الملازم تثير الإنهاك. أردت أن أحتوي الاثنين مرة واحدة، هذه اللعبة المزدوجة تتطلب مقاومة طبيعية لم أجربها. إذن، انتابتني فجأة رغبة في البكاء، وحلت مكانها حالة لا مبالاة يسميها اليهود الإنجليز «انهيار عصبي». اهتززت عبر متاهة من ردود الفعل. ولم أصل إلى مفهوم محدد لهؤلاء الناس، يعاودون الرحيل في مجموعتين متعارضتين، تتعاونان بشكل سري كي تقضيا على الخديو والملازم، ليسا سوى شخص واحد. ولست أنا نفسي سوى فراشة مجنونة تتجه نحو مصباح الآخر وتحترق أجنحتها في كل مرة على الأقل.

آزميرالدا تبكى، واذهب لمواساتها. هذه الكوابيس الصغيرة التي تنام فيها للتو. سأستمع إلى الخديو وفيليبير والآخر وهم يلعبون الماه ـ جونج. وأدور للمرة الأخيرة حول الموقف، من ناحية فإن الأبطال «سجاد الظلام»، هم الملازم والجماجم الصغار، سان ـ سبيرين من أركان الحرب. ثم الخديو، ولصوص البنوك من حوله. وأنا أتأرجح بين الاثنين بكل طموح، آه، إنهم متواضعون للغاية: بارمان، في فندق من ضواحي باريس. بوابة كبيرة، ممر من الحصا. حديقة حولها جدار بارز، جعلنا الجو نرى شعار النازية من نوافذ في الدور الثالث برج إيفل وهو يكنس الأفق.

أيها البارمان، سنفعلها. انه مؤلم أحياناً. خاصة في العام العشرين. عندما كنا نأمل بمصير أكثر إشراقاً، أما أنا فلا، فيم يتعلق

الأمر؟ إعداد كوكتيلات. مساء السبت. الطلبات تتلاحق بإيقاع لاهث، جن ـ فيتس، الكسندرا. دام ـ روز، قهوة ايرلندية. قشر برتقال بالليمون. قمطران مارتينيان. الزبائن يزدادون شيئاً فشيئاً، يحوطون البار، وخلفهم أمزج السوائل ذات ألوان قوس قزح. لا أنتبه إليها. أخشى ألا تتسارع عند أقل استرخاء إذا ملأت كؤوسهم بسرعة، حتى أظل على مسافة منهم. لا أحب الاتصالات الإنسانية كثيراً مثل بورتو فيليب، كل ما يريدونه الاعفاء من الكحول، طريقة مثل أخرى في الحماية من أقرانهم. ولم لا؟ للتخلص منها، كوراسو ماري بريزار؟ وجهاهما يحتقنان ويترنحان، وسرعان ما يغوصان سكراً حتى الموت، مستنداً على البار. أنظر إليهما يناضلان. لا يمكنهما إيذائي. الصمت أخيراً. نفسي قصير دوماً.

خلفي، صور هنري جارا، ووفريد برتونيل، وبعض نجوم آخرين من زمن ما قبل الحرب، الزمن اغتصب الابتسامات..حاملاً في اليد عددا من جريدة اليسترسيون (الرسوم) مخصص عن نورماندي. غرفة الشواء. والأماكن الخلفية، قاعة ألعاب الأطفال المدخنة، القاعة الكبرى، منح عيد ٢٥ مايو الفرصة لأعمال البحر برئاسة السيدة فلاترات غارقاً في كل هذا. كما اعتدت، أن أجد نفسي فوق السفينة تايتانيك عندما غرقت، في منتصف الليل. استمع إلى أغنية قديمة لتشارل ترنت.

مساء الخير

ياسيدتي الحسناء

لفت الأسطوانة دون أن أشعر بالملل من سماعها. أحياناً أضع غيرها فوق الجرامافون:

انتهى كل شيء، ولم تعد هناك نزهات

ولم يعد هناك ربيع، ولا سوينج تروبادور

الفندق. مثل غواصة عملاقة. فشل في وسط مدينة بلعها الأطلنطي! ينزلق غرقي في طريق ها وسمان.

... قدرك

ياسوينج تروبادور

فى الفوكيه، ظلوا حول الموائد، أغلبهم فقد ملامحه الآدمية، بالكاد يمكن أن نميز الأحشاء أسفل قصاصات من الملابس المرقشة، محطة سان ـ لازار، في قاعة الخطى الضائعة، الجثث متحولة في مجموعات متواصلة، أرى في داخلها من يهرب من بوابات قطارات الضواحي. في شارع أمستردام يخرجون من حانة «السيد»، وقد علتهم الخضرة، وانهم في حال أحسن من سابقيهم. استكملت رحلتي. اليزيه ـ مونمار ماجيك سيتي. لونا بارك. ريالتو ـ للرقص عشرة آلاف، مائة ألف دورة، بحركات بالغة الفتور. مثل شخصيات فيلم يتحركون على البطيء. الصمت، يحكون أحياناً

الغواصة ووجوههم الملتصقة بقوة: عيون منطفأة، أفواه نصف مفتوحة.

سوينج تروبادور...

لن أستطيع الصعود إلى السطح، المنظر مخلخل، أضواء البار تتأرجح، وأجد نفسي في محطة أوسترليتز، في الصيف. يرحل الناس في كل مكان من الجنوب. وتتدافع عند شبابيك السكك الحديدية. يصعدون العربات قاصدين هندياى. ليصلوا إلى الحدود الإسبانية التي لن تراها قط فيما بعد.. يتنزه البعض فوق الأرصفة لكن تصعيدا يتم بين لحظة وأخرى. هل يمسك بها؟ أسير نحو جنوب باريس، شاتليه. باليه رويال. ميدان الكونكورد. الشمس ناصعة الزرقة، الأوراق بالغة الرقة، وحدائق الشانزليزيه تبدو في شكل معدني.

فى شارع كليبر استدرت شمالاً إلى ميدان سيماروزا. ميدان هادئ. كأننا نعيش في المنطقة السادسة عشر. لا يوجد كشك الموسيقى، وتمثال ـ توسان ـ لوفر تير الذي يبدو محمرا كأرنب رمادي. الفندق الخاص لرقم ٣ مكرر الذي كان يمتلكه سابقاً السيد دربل ـ رسبيرو وزوجته. وأقاما فيه في ١٣ مايو ١٨٩٧، حفلا فارسيا اسُتقبل فيه سليل السيد بل ـ رسبيرو المدعو في ملابس الراجا. هذا الشاب مات في اليوم التإلى في حريق محل الخير.

السيدة بل ـ رسبيرو كانت تحب الموسيقى، وبشكل خاص «حلقة الوداع» لايزادورا دولارا. كان السيد بل ـ رسبيرو نشطاً في لحظاته الضائعة، يجب أن أذكر هذه التفاصيل، طالما أن الناس قد نسوها.

في شهر أغسطس بباريس، يمكن إثارة صدى الذكريات، الشمس والطرق الخاوية وجلبة أشجار الكستناء، أجلس فوق مقعد وأتأمل واجهة الطوب الأحمر والحجارة المغلقة منذ وقت طويل، في الطريق الثالث توجد غرفتا كوكولاكور وآزميرالدا التي شغلت الجانب الأيسر من السفينة. في القاعة صورة شخصية بالحجم الطبيعي للسيد دربل ـ رسبيرو في زي ضابط من السباهي. حدقت لدقائق طويلة في وجهه وصدره المغطى بالديكورات، وسام شرف، صليب سان ـ سبيلكر. دانيلو الجبل الأسود. صليب سان ـ جورج روسيا. برج وسيف البرتغال. استغللت غياب هذا الرجل كي أبقى في منزله. سوف ينتهي الكابوس. سوف يعود السيد دربل ـ رسبيرو، وأثناء تعذيب هذا النموذج المسكين. لأنه لطخ دمه على سجادة لاسافونيري، بدت أشياء بالغة الجدية، في ٣ مكرر، من الوقت الذي كنت أسكن فيه. في بعض الليالي. كم استيقظت على الصراخات المؤلمة والمشي ذهاباً وإياباً في الدور الأرضي، صوت الخديو، وأيضاً صوت فيليبير. نظرت نحو النافذة، يبدو ظلان أو ثلاثة ظلال في السيارات التي تقبع أمام الفندق، الأبواب تقرقع. صوت محرك من بعيد. الصمت! من المحال أن نستطيع النوم،

فكرت في السيد دربل ـ رسبيرو وفي ميتته البشعة. لم نستطع القيام وأن نضعه في اطاره. وأيضاً يمكن أن ندهش الأميرة لامبال ونحن نصف لها سنوات ما قبل اغتيالها. وماذا عني أنا؟ من يمكنه أن يلحظ أنني أصبحت شريكا لعصابة من الجلادين؟ يكفي أن تشعل المصباح وأن تنزل إلى القاعة كي تستعيد الأشياء مظهرها، كانت الصورة الشخصية للسيد دربل ـ رسبيرو هناك دوما. العطر العربي الذي تستخدمه السيدة دربل ـ رسبيرو قد تجاوز الجدران وأدار الرؤوس. ابتسمت سيدة الدار، أنا ابنها ملازم البارجة مكسيم بل ـ رسبيرو، في اجازة. كنت أحضر إحدى سهراتهم التي يجتمع فيها في ٣ مكرر الفنانون ورجال السياسة: أيدا روبنشتين، جاستون كالميت، فردريك دوماً دراتسو، لوى بارتو، جوتيه ـ فيلور، أرمان كاسيف، بوف درسان بليز، فرانك دواريفل، جوزيه دوسترادا، ميري بالوبان، الآنسة ميلو دارشيل، كانت أمي تعزف على البيانو مقطوعة «دائرة الوداع». فجأة لاحظت على السجادة السافونري بقع دم صغيرة، وقد انقلب أحد مقاعد فوتيه لويس الخامس عشر: الرجل الذي صرخ للتو كان، بلا شك، قد ضُرب أثناء امرار التبغ. تحت قدم الحامل حذاء، رابطة عنق، وقلم رصاص. من غير المجد في ظروف تستدع وقتاً أطول للسحر المتجمع لـ ٣ مكرر. تركت السيد بل ـ رسبيرو الغرفة. حاولت أن أمسك المدعو، تدخل جوزيه دوسترادا الذي يحفظ نص «النحل الذهبي» يتقاطع من

الذهول، أغمي على الآنسة ميلودارشيل، سوف يتم اغتيال بارتو. كالميت أيضاً. بوق دوسان بليز وجوتيه ـ فيلار اختفوا. فرانك لوارفيل وماداتسو لم يكونا سوى فراشتين مهووستين. ايدا روبنشاين، وأماند كاسيف، وميري لوران شفافات. وجدت نفسي وحدي أمام الصورة الشخصية للسيد دربل ـ رسبيرو. كنت في العشرين، في الخارج حيث العتمة، كان الخديو، وفيليبير قد عادا بسيارتهما، بالتأكيد لم أخلق كي أعيش في عصر مظلم هكذا. حتى الفجر، كي أتأكد من نفسي، فتشت في كل دواليب المنزل، ترك السيد بل ـ رسبيرو عند رحيله كراسا أحمر دوّن فيه ذكرياته. قرأته بشكل جيد عدة مرات، أثناء البارحة، سكن فرانك لارفيل شارع لينكولن. نسينا هذا الفارس المثالي الذي كان خياله سابقاً مألوفا للمتنزهين في ممر الآكاسيا...، الآنسة ميلودارسيل، هي شابة صغيرة قوية مغرية يتذكرونها أيضاً في الأمسيات القديمة لقاعتنا الموسيقية القديمة..... جوزيه دوسترادا، و«ناسك بيت الصيادين» هل كان عبقرياً مجهولاً؟ هذا السؤال لا يهم أحداً.. مات هنا وحده، وفي مأساة أرماند كاسيف... لديه الإحساس بالفناء، هذا الرجل. «من سيذكر أيضاً أليك كارتر الفارس اللامع، وريتا ديل أريدو؟».. الحياة ظالمة.

فى الأدراج. صورتان أو ثلاث صور أصابها الاصفرار، ورسالات قديمة. وباقة زهور مجففة عن سكرتير السيدة دربل ـ

رسبيرو، وفي داخل صندوق آخر هناك العديد من الفساتين من محل درت. ذات ليلة ارتدت الأجمل: من الحرير الأزرق مع قماش رقيق من النسيج الوردي الملفوف، لم آلفها أبداً كجنس ثالث. لكن في هذه اللحظة بدا لي مونتي شديد البؤس، بالغ المهابة، أردت أن أبلغ الروح التي تتظاهر بالنزق الأبدي. أمام مرآة فينسيا بالقاعة كنت قد وضعت على رأسي قبعة لامبال حيث تختلط الزهور والريش، والدانتيلا، انتابتني الرغبة في الضحك. اشتغل القتلة. تبدو كأنك تلعب لعبته. كما أخبرني الملازم، لكنهم يعرفون جيداً أنه ذات يوم. أو آخر، سوف أصبح شريكهم. لماذا تركونني! لا تترك طفلاً وحيداً في الظلام. في الأوقات الأولى. كان يخاف، ثم اعتاد وانتهى الأمر بنسيان الشمس تماماً. لم تسم باريس قط بمدينة النور. ارتدى مئزراً وقبعة جعلتني أرغب في اميليان دالتسون حيث أفكر في التخفف، واللامبالاة، التي بها أسلك حياتي، الخير، والعدالة والسعادة، والحرية، والتقدم يتطلبون الكثير من المجهود والأرواح الأكثر خيالاً من روحي. أليس كذلك. نحن نمارس هذه الأفكار، بدأت في اعداد مكياجي، استخدمت مساحيق السيدة دربل ـ رسبيرو، الكحل، والسركيس، وأحمر الشفاة هذا ـ كما يبدو ـ يعيد لبشرة السلطانة ملمس الشباب، رفعت وعي بشكل محترف حتى بدر وجهي ببذور الجمال بشكل القلب ـ القمر والمجرة ـ ثم لقضاء الوقت، انتظرت حتى يطلع الفجر.

الساعة الخامسة بعد الظهر، غابت الشمس على ميدان مفارش الصمت الأكبر. اعتقدت أنني رأيت ظلاً خلف النافذة الوحيدة التي لم تنغلق مصراعاتها، من يسكن في ٣ مكرر؟ أسمع البعض ينزل السلم. فتح الباب قليلاً، امرأة عجوز تسألني عم أريد. زيارة المنزل تجيبني بصوت حاد إنه من المستحيل في غياب صاحب البيت. ثم تقفل الباب، وتتأملني الآن، وقد الصقت جبهتها على الأرضية المربعة، طريق هنري ـ مارتان، الممرات الأولى لغابة بولونيا، تندفع حتى البحيرة الجهنمية. كنت أذهب دوماً في الجزيرة بصحبة كوكولاكور وآزميرالدا. منذ هذه الحقبة وأنا اتابع نموذجي: أتابع عن بعد ـ أكثر بعداً من الممكن ـ الرجال، وحركاتهم، وقسوتهم الماكرة. بدت لي الجزيرة ضاحية مناسبة بأرضها الخضراء، وأكشاكها الصينية، بضع خطوات أيضاً، مرعى كاتلان. كنا نأتي هنا ليلاً حيث ابتعد عن كل أعضاء الشبكة، أو هكذا كانت في الشلال الكبير؟ يعزف الأوركسترا فالس أوربيا مشرقاً، السيد العجوز والسيدة العجوز على المائدة المجاورة لنا.. تشرب آزميرالدا مشروب غرناطيا، ويدخن كوكولاكور سيجارة... وعم قريب سيلاحقني الخديو وفيليبير بالأسئلة، دائرة من حولي. وبسرعة أكثر فأكثر، مثيرة للجلبة أكثر فأكثر، وسوف انتهى بأن أمتثل كي يتركوني في حالي، انتظر. كنت أستغل هذه الدقائق من الراحة، يبتسم. وتقوم بعمل الكرات بقشها... أراهم أشبه بصورة تذكارية،

مر الوقت، إذا لم أكتب اسميهما: كوكولاكور وآزميرالدا. لايوجد أي أثر لوجودهما في هذا العالم.

على مسافة بعيدة قليلاً، في الغرب عند الشلال الكبير. لم تذهب قط خلفه: ممرات تحفظ جسر سيرسني، يجب أن نتصرف بحلم شيء. كل شيء هادىء الآن، بطول ممشى على حافة الماء. من زورق يحيي شخصاً ما وهو يحرك ذراعه.. أتذكر حزني عندما كنا نغامر حتى هنا، من المحال أن نعبر نهر السين. يجب أن نعود إلى داخل الغابة. كنت أفهم أننا الشيء الذي يقتنص الجسد، وينتهوا بأن يخرج الحيوان من مكمنه، القطارات لم تعد تسير، خسارة. أردت أن أحس بها ذات مرة. أن أصل لوزان، في البلاد المجاورة. تتنزه كوكولاكور وآزميرالدا وأنا، بطول بحيرة ليمان. في لوزان، لم نكن نخشى شيئاً، انها نهاية ما بعد ظهيرة صيف. مثل اليوم، نهج السين، طريق بويلى. باب مايوه. بعد أن تركنا الغابة، توقفنا بضع مرات في لونابارك. كان كوكولاكور يحب ألعاب الكرة، بقي ساكناً حتى ذاب الثلج. كنا نصعد في دورة «سيروكو» الذي يدور بسرعة كلما أتبعه. الضحكات. الموسيقى، وحامل صف الحروف اللامعة: «اغتيال الأميرة لامبال»، نرى فيه امرأة متمددة فوق الفراش، وهدف أحمر حيث يحاول الهواة أن يبلغوه بطلقة مسدس. في كل مرة تصاب بهدف يتحرك الفراش، وتسقط المرأة وهي تصرخ. وللأخريات جاذبية دامية، لم يكن كل هذا قط في

عصرنا، كنا خائفين مثل ثلاثة أطفال، يتم تركهم في عيد جهنمى. الكثير من الهوس، والضجة أو العنف، ماذا يبقى؟ فناء خاو في حواف جادة جومون ـ سان ـ سير، كنت أعرف الحي. وسكنته من قبل، ميدان الاكاسيا، غرفة في الدور السادس، في ذلك الزمن، كان كل شيء إلى الأفضل: كنت في الثامنة عشر وشهدت، بفضل الأوراق المزيفة، انسحاب البحرية، في الظاهر لم يكن أحد يود أن يمسني بأذى، قليل جداً من الوصل الإنساني! أمي، بعض الطلاب ـ عجوزان أو ثلاثة، وليلى مارلن. تمر أوقات العصارى في القراءة أو في التنزه. نزق الشباب الذين في مثل عمري يدهشونني. العيون تلمع. أتساءل هل من الأفضل ألا أبدي ملاحظات. منتهى التواضع. من الكمال إلى الألوان المحايدة، تلك كانت أفكاري. ميدان بريير. في المساء، أثناء الموسم الجميل، كنت أجلس في شرفة رويال ـ وفييه. أحدهم يشغل المائدة المجاورة لمائدتي، يبتسم لى. سيجارة؟ مد لي علبة الخديو. دخلنا في حوارات، يدير وكالة شرطة خاصة مع صديق له. اقترح كل منهما عليّ أن أدخل معهما في الخدمة، أعجبتهما عيناي الساذجتين وأسلوبي كشاب. كنت منشغلاً بالمغزل، وعلى التو. اشتغلاني بشكل جاد: قضايا، أبحاث، من كافة الأنواع. مهام موثوق بها، وأقمت مكتباً لي وحدي في محيط وكالة، ١٧٧، طريق نييل، لم يكن لرئيساى أي توصيات: هنري نورمان: المسمى «الخديو» (بسبب سيجارته التي

يدخنها) استعادة عمله القديم في العدالة: بيير فيليبير، مفتش عام معزول: لاحظت انهما يملأني بالكذبات «أقل ملائمة للأخلاق»، ورغم ذلك، لم تنتابني لدقيقة فكرة أن تأكد هذه الوظيفة في مكتبي، في طريق نييل، وعيت إلى مسؤولياتي، في المكان الأول أكيد الصراع المادي لأمي التي عانت من إفلاس مؤقت. ندمت لأنني تجاهلت آنذاك دوري في محيط العائلة لكن، الآن فإنني أعمل، وجربت المرتبات العالية.. وسوف أكون ابناً لا مثيل له.

طريق فاجرام، ميدان ترن، على يساري مصنع بيرة لوران. حيث ضربت له موعداً. كان ضحية تحدي، ويعتمد على وكالتنا كي تمنحه مثل هذا الموقف، عيناه الضعيفتان، يداه المرتعدتان، سألني وهو يغمغم إذا كنت قد حصلت على «الأوراق»، أجبته بنعم بصوت بالغ النعومة، يجب أن يعطيني ٢٠،٠٠٠ فرنك، نقداً. ثم، سوف نرى، التقياني اليوم الثاني، في المكان نفسه، مدّ لي بمظروف، كان الكونت هناك، وبدلاً من اسلمه «الأوراق»، قمت، ووليت الإدبار. ترددت في تكرار مثل هذا السلوك، ثم اعتدنا. كان رئيساي يمنحاني عمولة عشرة في المائة عندما أنجز هذا النوع من الأعمال، في المساء كنت أحضر لأمي قصارى الأوركيديا، صارت تقلق وهي تراني بالغ الثراء. ربما خمنت أنني أفسدت شبابي مقابل شيكات بنكية. لم تسألني عن هذا. ومر الوقت سريعاً.

ذات يوم، صار لدينا صبي كبير

كنت أفضل أن أهب نفسي إلى أمر أكثر نبلاً من هذا، وكالة الشرطة الخاصة، المستعارة، أعجبني الطب لكن الجروح، ورؤية الدم ترعبني، على العكس، كنت أتحمل جيداً دمامة الخلق، وبطبيعة متحدية اعتدت أن آخذ في الاعتبار الناس والأشياء من جانبهم السيء، حتى لا أقع في الإحباط. أحسست بأنني على راحتي في طريق نييل حيث لا يتكلم أحد سوى عن التحدي، فقدان الثقة. سرقات، احتيالات مرور من كافة الأنواع، حيث نستقبل زبائن ينتمون إلى الإنسانية. حول هذا الفصل الأخير، فإن رئيساي لم يكن لديهما ما يرغبانه، عنصر واحد إيجابي: كسبت، مثلما قلت لتوى، مبالغ كبيرة، فتعلقت بالأمور المهمة. وفي مرتفعات شارع بيير ـ شارون حيث كنا نذهب دائماً أنا وأمي. كنا نرفض أن نضع مجوهراتنا المزيفة، قررت ذات مرة أن أمتثل لكل بؤس يبعثني على الملل. فكرت أنني أفتقد المثالية، كان لديّ عند الرحيل طزاجة الروح. هذا يحدث. في وسط الطريق، ميدان النجم، قضينا تسع ساعات في المساء، المرايا العاكسة في الشانزليزيه مطفأة مثلما كان يحدث من قبل، لم يبروا بوعودهم، هذا الطريق الذي يبدو لي عن بعد فخا هو أحد النواحي الأكثر حقارة في باريس. كلاريدج، فوكيه، هنجاريا، ليدو، امباس،

بترفليى... وفي كل مرحلة أجري العديد من المقابلات الجديدة، توستا شيسكو، البارون لاستاذ، أودى كارفي، هاياكاوا، ليونيل دوزيف، بولس دوهيلدر... راستاس، مجهضون، فرسان الصناعة، صحفيون نخرهم الدود، محامون، ومحاسبون كستناء يرسمون حول الخديو، والسيد فيليبير. ثم نضيف معركة صغيرة نصف اجتماعية، والراقصات من هذا النوع، ومتعاطي المورفين.. السيدة سلطانة، سيمون بوكورو، البارونة ليديا ستال، فيوليت موريس، ماجدة داندوريان.. لقد أدخلني رئيساي في هذا العالم المشبوه. شانزليزيه، كما ننشد أيضاً اقامة ظلال الفضيلة والبطولة، تساءلت لماذا يحمل الطريق الذي أجد نفسي فيه هذا الاسم، أرى فيه الظلال، إنها ظلال ـ السيد فيليبير والخديو ـ والمساعد. هاهو يخرج من كلاريدج، ذراع أعلى وذراع أسفل، جوانوفيش، والكونت دوكا جيليو سترو يرتديان بدلتين أبيضين، وفرسان من البلاتين. الشاب الخجول يعبر شارع لورد بايرون يسمى ايوجين فيرمان، ساكناً أمام الـ يام ـ يام، تيريزدو دويافيا، أجمل عاهرات الإمبراطورية الثالثة في زاوية من شارع ماريون. ابتسم الدكتور بتسيو لي. شرفة ـ الكوليزيوم: بعض متاجر الممر الأسود تنثر الشمبانيا من بينهم الكونت باروتسي، والشقيقان شابوشنيكوف. رشيد فون روزنهايم، جان فاروق دوميتود، أوتوداسيلفا. وآخرون كثيرون. إذا بلغبت رون بوان، فربما سوف أهرب من أشباحها. بسرعة، فإن

الصمت، وأوراق حديقة الشانزليزيه. فيها أتأخر دوما، بعد أن توترت كل ساعات العصرية، أذرع الطريق لدوافع مهذبة (مواعيد عمل، مع شخصيات مرموقة إلى الأعلى) كنت انزل نحو الحديقة بهدف استنشاق القليل من الهواء النقي، كنت أجلس فوق مقعد. لاهثاً، الجيوب مليئة بالشيكات البنكية، عشرين ألف، أحياناً مائة ألف فرنك.

كانت وكالتنا ـ خاصة المتوافق عليها ـ على الأقل تسيطر عليها مقاطعات الشرطة، كنا نجهز المعلومات التي تطلبها، ونجرب جزءاً آخر في ابتزاز الشخصيات العديدة الأعلى مقاماً. يؤمنون أيضاً بأن يؤكدوا صمتنا وحمايتنا. السيد فيليبير يدخل تقرير برتاليه مع زملائه القدامى. المفتش رونيه، دافيد جالبي، يورجنس، سانتوني، برمييو، ساروفسكى، فرانسوا ودنمار. أما أنا، فإن أدواري لم تكن متشابهة بشكل محدد بنقود مبتزة، عشرون ألف. وبضع مائة ألف فرنك، كان اليوم جافاً، لم يكن الامر قد انتهى. عاودت رؤية وجوههم. أشبه بأشجار الزيتون. ممتلئة، وأفواه متخمة تبدو بعضها مشعة وكان عليّ. أنا البالغ الخجل، الحساس بالسليقة، أن أرفع النبرة. أعلن لهم أنني سوف أتوجه للتو نحو رصيف اورفيفر إذا لم يدفعوا. سوف أكلمهم عن فيشات صغيرة وأن رئيساي كلفاني أن أتولى مهمتي اليوم، وعليه فقد كان اسميهما يشيران لي في السيرة الذاتية، انهما ليسا لامعين تماماً في هذه الفيشات الصغيرة. أخرجا

مفكرتيهما وهما يعاملاني كأني «أجير». هذا التوصيف سبب لي الألم.

وجدت نفسي جالساً وحدي فوق مقعدي، هناك نواحي تشير إلى التحول. الميادين هي مقاطعات ضائعة في باريس، واحات صغيرة وسط العواصف وديمومة الإنسان. التويلري، لوكسمبورج، غابة بولونيا، لكنني لم أفكر كثيراً في حديقة الشانزليزيه ماذا كانت بالضبط أسبابي الاجتماعية؟ مطرب صعلوك؟ هوية شرطة؟ عددت شيكات البنك وحسبت نسبتي عشرة في المائة. سوف أذهب إلى «لاشرم» وأطلب مشروب الروزيه الأحمر. واختار حلقتين أو ثلاث من عند اوستراج، ثم من عند بيجو. وليلونج ومولينو، وأشتري العشرات من الفساتين من أجل أمي، صعلوك، عطاء، ملامة، ربما قاتل، لكنها خطوط متشابهة، انه عزائي الوحيد، يحل المساء، ويترك الأطفال الحديقة بعد لفة أخيرة. هناك فإن مرايا الشانزليزيه العاكسة تضاء مرة واحدة. من الأفضل ـ كما قلت لنفسي أن أبقى في ميدان الاكاسيا، وأتجنب، بعناية، مفارق الطرق، والشوارع الواسعة التي ملأتها الضجة، يا لها من فكرة غريبة أن أجلس في شرفة رويال ـ فمييه، في ميدان بريير، أنا بالغ الكتمان، شديد الحذر، وأريد بكل ثمن أن أنسى نفسي، لكن يجب أن نبدأ الحياة. نحن لا نقطعها، فسوف تنتهي بأن ترسل لك رقبائها المتطوعين: حسب اتفاق الخديو والسيد فيليبير. ذات مساء آخر، بلا شك،

سأقع على أشخاص أكثر شرفاً، عليهم نصحي في شأن صناعة النسيج أو الأدب إلا أحس بأى نزعة خاصة. انتظرت إخوتي الأكبر اللذين اختاروا لي وظيفة. ومنهم سأعرف تحت أي مظهر يفضلونني. تركت لهم المبادرة، صبي كشافة؟ بائع زهور، لاعب تنس؟ لا موظف لـ وكالة، خاصة للشرطة. صعلوك، علامة لاعب راكيت. هذا يدهشني تماماً. لم تكن لديّ فضيلة أن أمتهن هذه الأعمال: الخبث والوسوسة الناقصة، ونعم المخالطة الفاجرة. جربتها بكل شجاعة مثلما يستعد الآخرون في مؤسسة النحاس. الأكثر جدية مع غلمان من طرازي: يمكنهم أيضاً الوصول إلى مدافن العظماء في مقابر تياس. مربع من البنادق. يتصرف كالأبطال. أو الأعمال القذرة. نحن نجهل أنهم دخلوا في قصة قذرة مع أجسادهم المحصنة. التي تجلب لهم: مجموعة من طوابع البريد، وأن يبقوا هادئين، في ميدان الأكاسيا، يتنفسون أنفاساً ثمينة.

وأنا أنتظر، سحبت قطعة من القطن القديم، شربت بقليل من الحماس وأنا أجربها على عتبة الحياة ما جعلني أكثر نفعاً في سلطة الخديو والسيد فيليبير. كررت كلمات الطبيب، جاري القريب، في ميدان الأكاسيا. قال: «فى العشرين، يبدأ سن الفساد.. على الأقل أقل الخلايا العصبية يا صغيري». سجلت هذه الملاحظة في مفكرة لأنه يجب أن نستفيد من تجربة الأكبر سنا، الذي يرى الصح، أخذت الأمر في حسباني الآن، تجارتي والشخصيات المزعجة التي

تقاربني جعلتني أفقد بشرتي الوردية. المستقبل؟ دورة تعني أنني يجب أن أسير فوق أرضي البور، وأن أقطع رأس نموها، يتم سحبي دون أن أقدر على التقاط أنفاسي، يهمس البعض في أذني: لن نبلغ الحياة إلا بهذا الزوبعة حيث سوف تحملها... موسيقى الغجر الأكثر إيقاعاً كي تختنق صراخاتي. هذا المساء، بالتأكيد، أعماق الهواء رقيقة، مثل الأيام الخوالي، في الساعة نفسها. حمير الممشى الرئيسي تتجه نحو الحظائر. انهم مدانون، طيلة النهار. ينزهون الأطفال، يتشتتون ناحية طريق جابرييل، لن يعرف أبدا شيئاً عن آلامهم. تتملكني الرزانة، في ممرهم وجدت الهدوء. والوفاق. حاولت أن استجمع أفكاري، كانت نادرة، وبالغة التفاهة. لم يكن لي مذاق للأفكار. أكثر دافع لهذا. فأنا كسول. وبعد بضع دقائق من المجهود أصل دوماً إلى المفهوم نفسه: سوف أموت يوما أو آخر، على الأقل فأقل من الخلايا العصبية. شديدة العفن. حذرني الطبيب. يجب أن أضيف أن عملى يتيح لي لذة الكآبة: معلومات الشرطة، لضابط في العشرين، هذا لن يبلغك آفاقا سيئة. انه يسبح في ١٧٧، طريق نييل. رائحة غريبة، بسبب العمارات القديمة. لم تكن الإضاءة واضحة. وخلف المكتب خزائن من الخشب حيث أرتب الفيشات الخاصة بعملائي. أعلم عليها بأسماء الأقدام المسمومة: من الحبر الأسود. بلادون، بوليه ساتان. جوسكيام. أنتولومب نقي.. عند الاتصال بهم. فإنني أنزع العطر

الثقيل لطريق نييل الذي يخصب ملابسي، هل تركت نفسي أصاب بهذا المرض؟ استطالة سريعة للشيخوخة، تكوين طبيعى وروحاني مثل الطبيب الذي بلغته، رغم ذلك لم أشعر بمتعة قط بمذاق الحالات المرضية.

قرية صغيرة

وغد عجوز

أدفن طموحاتي، وجدت نفسي، للأسف، في مدينة، نوع من لونابارك ضخمة، حيث يهزني الخديو والسيد فيليبير، في مصدات إطلاق النيران في الجبال الروسية (جونيول ـ الكبير في شرنقة «سيروكو»). في النهاية، تمددت فوق مقعد، لم أصُنع لكل هذا. لم أسأل شخصا أبداً. لقد جاءوا للبحث عني.

أيضاً بضع خطوات، على اليسار: مسرح السفراء، حيث يعرض «تفتيش ليلي» أوبريت نسيناه تماماً. يجب ألا يكون الكثير من المشاهدين في القاعة. سيدة عجوز، رجل كهل، وسائحين أو ثلاثة إنجليز، بلغت أرضاً خضراء أخيراً. ميدان الكونكورد، مرايا عاكسة أصابتني بألم في عيني. ظللت ساكناً، مقطوع النفس في أعلاى، هاجت أحصنة مارلى بكل قوتها تحاول الهروب من نفوذ البشر، ودت أن تقفز عبر الميدان، محاولة جميلة، الناحية الوحيدة في باريس التي جربت ثمالة الكبار. مناظر الحجارة، والشعلات هناك،

من ناحية حديقة التويليري. والمحيط.. كنت عند الشاطىء وراء سفينة تتجه نحو الشمال الغربي، جالبة معها «مارلين» الأوبرا، قصر برليتز، كنيسة الثالوث المقدس. تنطفىء بين لحظة وأخرى، سوف نستريح غدا على مسافة خمسة آلاف متر في العمق، لا أخشى رفاقي، ريكتس، البارون لاستاذ: نظرة قاسية من أوديشار تجاه الأخوين شابوشنيكوف. السيدة سلطانة لوثت شريان ذراعها الأيسر بواسطة حزام زنار، وقد احتقن زيف وسوقيته، مقياس الوقت الذهبي. يداها المكتنزتان المرصعتان بالخواتم، إيفانوف وجلساته الاحادية الإيقاع، كوستا شيسكو، جان فاروق دوميتود. رشيدفون روزنهايم يتكلمون عن فشلهم في الاحتيال، وكتيبة اللصوص اللذين يتعامل معهم الخديو كرجال. أرمان المجنون، جوريكرو، توني بريتون، فيتال ـ ليكا، روبيرلوبال. جواري، دانوس، كوديبو... من هنا بعض الوقت. كل هؤلاء الأشخاص المعتمون سيكونون فريسة لأخطبوطات، وأسماك الثعبان، اقتسمت طرازهم، عن طيب خاطر، بدا لي هذا بوضوح شديد ذات ليلة حين كنت أجتاز ميدان الكونكورد. الذراعان متعاقدان. ظلى مميز حتى بداية شارع رويال. يدي اليسرى تصل إلى الشانزليزيه. يدي اليمنى إلى شارع سان ـ فلورنتين. أستطيع أن أتذكر يسوع المسيح، لكنني فكرت في يهوذا الأسخربوطي. نحن نجهله، كان في حاجة إلى الكثير من الخزي والشجاعة كي يأخذ في حسبانه، كل عار

البشر.عند الموت، وحده. مثل رجل كبير، فإن يهوذا هو أخي الأكبر، كانت لكل منا طبيعة مختلفة. لم نأمل شيئاً في التشابه، ولا في أنفسنا. ولا في منقذ محتمل. هل حصلت على قوة أن أتبع نموذجك حتى النهاية؟ طريق صعب، الظلام يسود شيئاً فشيئاً. لكن وظيفتي كعلامة ونصاب الشباب شجعتني أن آلف هذا النوع من الظلمة، أشير إلى الأفكار الشريرة لرفاقي.. ولكل جرائمهم. بعد بضعة أسابيع من العمل المكثف، لم يعد طريق نبيل يدهشني، كان عليهم استدعاء ملامح جديدة. كادت أن تختفى، تطلعت إليهم يتحركون على جسر النزهة. بطول الممرات. سجلت دعاباتهم. عمل بلا جدوى إذا فكرنا فيه أن المياه غزته، عم قريب فإن قاعة التدخين الكبرى سوف تشهد الفرق الكبرى. الأكثر قسوة بين المسافرين. ألهموني الشفقة. هتلر نفسه، سوف يبكى بين ذراعيّ كطفل. وأروقة شارع ريفولي. ستحدث أشياء جسيمة، لاحظت خطوطاً متصلة، السيارات بطول الجادات الخارجية، تهرب من باريس، الحرب بلا شك كارثة غير مسبوقة. خارجاً من كل هيلدتش، وكاتي بعد أن اشتريت رابطة عنق التي يضبطها الرجال، اعتبرت هذه القطعة من القماش التي يضبطها حول أعناقهم، رابطة عنق زرقاء وبيضاء، ارتديت في هذه الأمسية بدلة بيج وحذاء له رائحة الكريب، في مفكرتي. صورة لأمي وتذكرة مترو مستعملة، كنت قد قصصت شعري لتوي، هذه التفاصيل لا تهم أحداً. لا

يفكر الناس سوى في انقاذ جلودهم. كل لنفسه. في آخر بعض الأزمنة، أكثر من سور، سيارة في الشوارع. أمي بنفسها قد رحلت، أردت أن أبكي لكنني لم ألحق قط بها، هذا الصمت، هذه المدينة الخاوية التي تتوافق مع حالتي المعنوية. أهتممت مجدداً برباط عنقي وبحذائي. كانت الشمس مشرقة، وكلمات أغنية أعادت لي الذاكرة:

وحدي

منذ الأبد

ما نوع العالم؟ لم أقرأ قط عناوين الصحف، من ناحية أخرى، لم يكن هناك سوى الجرائد. والقطارات، ركبت أمي القطار الأخير من باريس ـ لوزان، وحدها.

كان يعاني كل يوم

يبكي

مع سماء باريس

أغنية رقيقة.. مثل تلك التي أحبها، للأسف. لم يكن هناك وقت العواطف، كنا نعيش ـ كما يبدو لي ـ عصراً مأساوياً، لا ندندن بروفات ما قبل الحرب عندما كان كل شخص يعاني مم حوله. افتقدت الهيبة. هل هو خطأى؟ لم أجرب قط هذا المذاق لسبب جسيم. إلا ما يخص السيرك، والأوبريت، والموزيكهول.

أعبر شارع كاستيليون. الجو ليل، أحدهم يتبع خطاي، ضربني فوق كتفي. إنه الخديو. استحسنت لقاءنا، في هذه اللحظة، هذه اللحظة نفسها، كابوس عرفته من قبل كل التحولات، أمسكني بذراعه، ركبنا سيارة، وعبرنا ميدان فانروم. ألقت المرايا العاكسة ضوءا أزرق غريباً، نافذة واحدة مضاءة في واجهة فندق كونتننتال. يجب أن تعتاد على هذه العتمة يا صغيري. انفجر ضاحكاً، وأدار زر الراديو.

شممنا رائحة جميلة

إنها

الزهرة الزرقاء..

ظلام كثيف أمامنا، هل هي الأوبرا! كنيسة الثالوث المقدس؟ على اليسار إشارة لامعة لـ فلورسكو. بلغنا شارع بيجال، استند على الحاجز.

نظرة تجذبك

إنها

الزهرة الزرقاء..

تحل العتمة من جديد، مصباح أحمر كبير، إنه على الطريقة الأوربية، ميدان كليشي، يجب أن نسلك طريق باتيول. كشف الفنار فجأة عن سور حديدي، وسقوط الأوراق في حديقة موتسو؟

موعد في الربيع

إنها

الزهرة الزرقاء..

راح يصفر لحن تقاطع الإعادة، في الأغنية، ضارباً بالمألوف. ونحن نهز الرؤوس، ندور بسرعة هذيانية، هل نعرف أين نحن، يا عزيزي الصغير! أشعل قداحته، اصطدام يضرب كتفه. وتصرخ الفرامل. صعدت وأنا أمسك درابزين السلم. رفع القداحة، وصار لديّ الوقت لملاحظة لوحة من الرخام فوق الباب، «وكالة نورمان ـ فيليبير»، دخلنا، استمرت الرائحة بحلقي. أكثر خنقاً من العادة، نهض السيد فيليبير واقفاً وسط الممر، كان ينتظرنا، سيجارة معلقة في ركن من فمه، غمز لي بعينيه وحسب ما استبد بي التعب. ابتسمت له.. فكرت أن أمي موجودة في لوزان، ليس هناك شيء أخشاه. شدنا السيد فيليبير إلى مكتبه. يخشى انخفاض التيار، هذا الضوء الواضح يسقط من الثريا البرونزية، لم يدهشني، أنا هكذا دوماً في ١٧٧ طريق نيبل. اقترح علينا الخديو أن نفترش الشمبانيا، وأخرج زجاجة من جيب سترته الأيسر. وبدءاً من اليوم، فإن «وكالتنا» سوف تقدم ـ كما يبدو ـ اعتباراً كبيراً.. لعبت الأحداث الحالية دوراً في ما نفضله، استقررنا في ٣ مكرر. ميدان سيمارون، في فندق خاص، حيث تنتهي تدابير الأسبوع الصغير، منحوناً

مسؤوليات عليا، ليس هناك شيء مستبعد سوى مناداة الخديو باسم رئيس الشرطة، هناك أماكن علينا أن نستولي عليها. في هذه المرحلة المرتبكة. دورنا هو: القيام بمهام متنوعة، تفتيشات، استجوابات، وتوقيفات. «خدمة ميدان سيماروزا» وظيفتين: تركيب بوليسي، و«مكتب المشتروات»، لاغياً المواد، والمواد الأولى غير الموجودة هنا في أي زمن، اختار الخديو اذن عشرات من الأشخاص الذين سيعملون معنا، من المعارف القديمة، انها تظهر الجميع. مع صورهم الأثرية، على لوحات ١٧٧، طريق نييل. يعني هذا، أن السيد فيليبير سيمدنا بطاقم شامبانيا، وإننا تبادلنا الأقداح بسبب نجاحي. وسنكون، كما يبدو، ملوك باريس، أومأ الخديو على هنري، ودس في جيبي الداخلي حزمة من الأوراق المالية. يتكلمان فيما بينهما، يتصفحان الملفات، والاجندات، ويتهافتان، ومن وقت لآخر، يطلعان عليّ بصيحات عالية. من المستحيل، أن أتتبع اجتماعاتهما غير القانونية. تركت المكتب إلى الغرفة المجاورة: قاعة ننتظر فيها «عملائنا». يجلسون فوق مقاعد الفوتيه الجلدية القديمة. وعلى الحوائط، عدد من الأطباق الحجرية الصغيرة تمثل مشاهد من قطاف العنب، بوفيه وأثاث من خشب الصنوبر. وخلف الباب في العمق غرفة مع حمام. ظللت وحدي، في المساء كي أقوم بترتيب الفيشات، كنت أعمل في الصالون. ألا يمكن لأحد أن يصدق أن هذه الغرفة هي مقر لوكالة شرطية.

زوجان من أصحاب الدخول كانا يسكنان هنا فيما قبل. سحبت الستائر. عمّ الصمت، ضوء غير متكامل. رائحة أشياء يابسة ـ هل أنت حالم، يا صغيري؟ انفجر الخديو ضاحكا، وهو يضبط بدلته أمام المرآة. عبرنا الممر. فوق المسطح، السيد فيليبير، الموقد الكهربي. سوف نعلق المعلاق هذه الليلة. في ٣ مكرر. ميدان سيماروزا، لقد رحل المُلاك، وصار منزلهم لنا تماماً. يجب أن نفعل هذا، بسرعة، أصدقائي ينتظرون في «الساعة الرمادية»، وهو اسم كباريه في الشانزليزيه.

فى الأسبوع التالي، كلفني الخديو بأن أعلن عن «خدمتنا» حول الوقائع والحركات لأحد الضباط الدومنيكان. جاءتنا مفكرة تخصه مع عنوانه وصورته مع الاشارة التالية.. «للمراقبة»، يجب أن أحشر نفسي تحت أي حجة، أيا كانت قريبة من هذا الشخص. اتجهت إلى مسكنه، ٥ شارع بواسروبير، في المنطقة ١٥، مقصورة صغيرة. انه الملازم نفسه الذي فتح لي الباب، سألت عن السيد هنري نورمان، أجابني أنني مخطىء، شرحت له الأمر، وأنا متلجلج: كسجين حرب هارب، نصحني أحد زملائي أن أدخل في القتال مع السيد نورمان، ١٥ شارع بواسروبير، ونجحت في الهرب، هذا الرجل وضعني في ملجأ، لقد خدع صديقي بلاشك في العنوان. فأنا لا أعرف أحداً في باريس، وليس لديّ مليم في جيبي. وأنا بالفعل مضطرب، تفحصني من القدم حتى الرأس،

احتبست بعض الدموع لاقناعه بشكل أفضل. أعلن بصوت مهيب أن صبياً في مثل سني يجب ألا يترك نفسه خائر العزيمة بالكوارث التي تطيح بموطني. ومن جديد، قاس طولي، وفجأة طرح عليّ هذا السؤال: هل تريد أن نعمل معاً؟ ثم أشار إلى مجموعة من زملائه «مدهشون». كان أغلبهم من المساجين الهاربين، مثلي، سان ـ سيريان، وضباط في الخدمة، وبعض المدنيين، يرتعدون جميعا من قسم الشرطة. أجمل القادة، قرروا النضال والمقاومة ضد قوى الشر الذين ينتصرون في هذه اللحظة. واجب صعب. لكن بقلوب لا تعرف المستحيل. الخير، الحرية، الروح المعنوية متمثلة في استحقاق مختصر. هو. الملازم دومنيك، لم اشارك أحداً تفاؤله. أفكر في المهمة التي عليّ تنفيذها، هذا المساء، في ميدان سيماروزا، بين يديّ الخديو، قدم لي الملازم تفاصيل أخرى: قام بتعميد مجموعته «شبكة فرسان الظل» ش ف ظ. من الصعب مقاومتها في أي يوم، يتعلق الأمر بحرب سرية. سوف نعيش مطاردين دوما. اتخذ كل عضو من الجماعة لنفسه اسما مستعارا، اسم محطة مترو. وسيقدمون لي أنفسكم سان جورج، أوبليجادو، كورفينرار، برنتي، وأخرى أيضاً، أما بالنسبة لي فقد أسموني «أميرة لامبال». لماذا «أميرة لامبال!» انها نزوة من الملازم.. هل أنت مستعد للدخول إلى شبكتنا؟ الشرف يتطلب ذلك، عليك ألا تتردد ثانية واحدة، أليس كذلك؟ أجبته «نعم» وبصوت متردد:

«نعم» بشكل خاص، لا تنحن، يا صغيري، أنا أعرف، أن الأزمنة حزينة واللصوص يستولون على الأموال. هناك رائحة أخرى عفنة في الجو، لن يدوم الأمر طويلا. كن قوى الروح يا لامبال. أراد أن أبقى في شارع بواسروبير لكنني ابتدعت في الحال عماً عجوزاً يوافقني في الاستقلالية. وعقدنا اتفاقاً أن نلتقي. غداً بعد الظهر، ميدان الأهرام، أمام تمثال جان دارك. «إلى اللقاء يا لامبال»، نظر إلي ملياً، عيناه تضيئان، لم أستطع مقاومة بريقهما، كرر: «إلى اللقاء يا لامبال»، وهو يؤكد على الحروف باسنانه: ل ا م ب ال. أعاد اغلاق الباب، وحل المساء، مشيت على غير هدى في هذا الحي المجهول، يجب أن أبلغ ميدان سيماروزا، بماذا أخبرهم؟ على كل فالضابط دومنيك بطل. وكل أعضاء فريقه أيضاً، يجب هذا، رغم أنني أعد تقريراً خاصاً للخديو، وإلى السيد فيليبير، عن وجود ش ف. ظ، سيفاجئهم. لم يتفقوا في شأن نشاط بهذا الاتساع، سوف تنخرها فيها. حاول أن يعرف أسمائهم، وعناوينهم والكثير من الخيوط.. ولأول مرة في حياتي، وافقت على ما يسمى بحالة من الوعي، العبور إلى مكان آخر، منحوني مائة ألف فرانك نقداً عن المعلومات التي أتحتها لهم.

ميدان الأهرام، هل تريدون أن أنسى الماضي، لكن نزهتكم سوف تأخذكم بلا توقف إلى مفارق طرق مؤلمة. خطا الملازم مائة خطوة أمام تمثال جان دارك. قدمني إلى صبي طويل، أشقر، حليق

الرأس تماماً، العينان عناقبتان: سان جورج، سان سيريان. دخلنا حديقة التويليري وجلسنا في حانة قريبة من اسطبل ترويض الخيول، ديكور طفولتي. طلبنا ثلاثة عصير فواكه. أحضرها لنا النادل وهو يخبرنا أنها الأخيرة من زمن ما قبل الحرب، وعم قريب، لن يكون هناك عصير فواكه. «سوف نفتقده» قال سان ـ جورج بابتسامة. هذا الشاب يراني مدرب جيداً. سألني: هل أنت أحد الأسرى الهاربين؟.. أي فيلق؟ ـ أجبته بصوت واضح: الفيلق الخامس. لكنني فضلت ألا أفكر فيه... جاهدت نفسي بقوة وأضفت: «ليست لي سوى رغبة واحدة: أن استكمل القتال، ضد كل شيء»، ظهرت مهنتي الحقيقية في الاقناع. أنعم عليّ بكلمة، أعلن الملازم: اجتمعت بأعضاء الشبكة كي أقدمك إليهم، يا عزيزي لامبال.. انتظرنا، في شارع بواسروبير.. هناك كورفيزار، أو بليجادور، برنتي، وجاسمين. تكلم الملازم عني بعبارات حارة: الحزن الذي جربته بعد الانفصال، إرادتي في استئناف النضال. الشرف، والارتياح لرحيل اليوم. صحبتهم إلى ش ف ظ «حسنا، لامبال سوف نطلب منك مهمة»، شرح لي أن أشخاصاً عديدين استغلوا الأحداث كي يحرروا غرائزهم الشريرة. لا شيء أكثر طبيعي في عصر المتاعب، والاضطراب مثل عصرنا، هذا الأمر السيء يثير المتع بشكل عقابي كلى: نوزع عليهم بطاقات الشرطة، وتصاريح حمل الأسلحة. وتخص ضغط بشع ضد المواطنين،

والشرفاء. مرتكبة كافة أنواع التحجر. لقد استولوا على فندق خاص، ٣ مكرر، ميدان سيماروزا. المنطقة الخامسة عشر، هيئتهم تسمى في العموم، «المؤسسة التجارية العالمية من باريس - برلين - مونت كارلو..» إنها العناصر الوحيدة التي أطرحها. واجبنا هو: تجنيدهم بأكثر سرعة ممكنة، أعتمد عليك يا لامبال، سوف تنضم إلى هؤلاء الناس، وسنراقب حركاتهم، وسلوكهم. عليك الدور، يا لامبال.. ابتسم وهو يمد زجاجة كونياك: جاسمين وادبيجادو، سان جورج وكورفيزار فيما بعد، سوف نذهب إلى جادة باستور. أراد الملازم أن يصحبني إلى محطة مترو سيفير ـ لوكورب، في اللحظة التي تركنا فيها، نظر بحدة في عيني: «مهمة خطرة، لامبال» لعبة مزدوجة ـ نوعاً ما. خذني معك في الطريق. حظ سعيد يا لامبال«. وماذا لو قلت له الحقيقة؟ لقد تأخر الأمر. فكرت في أمي، ينها على الأقل، موجودة في مكان آمن. اشتريت لها فيلا بلوزان بفضل العمولات التي آخذها من مكتب جادة نييل، أستطيع أن أعيش معها في سويسرا، لكنني أبقى هنا بدافع الكسل والاختلاف، قلت أنني أهتم قليلاً بنوع هذا العالم، عالمى ليس مصنوعاً على مقاسي، يكفي أن نترك أنفسنا للتيار. ذرة القش. في هذا المساء، سوف أبلغ الخديو عن النضال بـ كورفيزار، أو بيجادو، جاسمين، وبرنتي، وسان ـ جورج. لا أعرف عناوينهم ولكن هذا لن يتأخر، وعدته أن أمده بسرعة أكثر بكل المعلومات المفيدة حول هؤلاء

الشباب، وأشياء أخرى لن يتأخر الملازم في أن يمدني بها، بإيقاع، تتحرك فيه الأشياء. سوف تمنحهم ثقتك بخيشومك الذي يملكه تاجر تماثيل الجص»، استبد بي دوار فجأة، وأعلنت له أن رئيس هذه الشبكة ليس ملازماً، مثلما كنت أعتقد: «ماذا اذن؟» وجدت نفسي في طرف، يكفي بلا شك شيء ما كي يبعدني عنه «نعم»؟ لكن أبداً. «ليست لديّ القوة» «نعم» شخص ما يسمى ل م ـ بال، لام ـ بال. حسنا سوف نضع يديك عليه. حاول أن تحدد هويته، تتعقد الأمور. هل كانت هذه غلطتي؟ حدثوني، من واحد لآخر، عن دور العميل المزدوج، ولم أشأ أن أخدع أحداً. لا الخديو ولا فيليبير. ولا الملازم ولا قديسيه الصغير، يجب أن أختار، كما قلت لنفسي: «فرسان الظل.. أو أكون عميلاً إلى صيدلية ميدان سيماروزا» أبطال أم أوغاد؟ لاهذا ولا ذاك. بعض الكتب.. «مختارات الخونة، من السيياد إلى الكابتن دريفوس»، جوانوفيس مثلما كان، سر الفارس أيون، فريجو لى. رجل اللاشيء. أعلنت لي على حسابي، أحسست بالمصاهرة مع كل هؤلاء الأشخاص. رغم أنني لست رجلاً ممازحاً. لقد جربت ما يسمونه شعور كبير عميق، ثمين، الشيء الذي أستطيع أن أتكلم حوله وعن معرفة أسبابه، وقد رفعني إلى الجبال: الخوف، تغوص باريس في الصمت، والعتمة. وعندما اقتحم هذا الزمن، ينتابني الأحساس أنني أتحدث إلى أصماء حيث أن صوتي ليس قوياً بما

فيه الكفاية، أكاد أقع من الخوف، يتباطىء المترو وهو يدخل إلى كوبري باسي. سفيير ـ لوكورب ـ كاميرون ـ لوموت بيكاريه. روبليكس ـ جزال ـ باسي. في الصباح أختار الاتجاه المعاكس من دوباس إلى سفير ـ لاكورب. ومن ميدان سيمارون في المنطقة السادسة عشر، إلى شارع بواسروبير، والمنطقة الخامسة عشر، من الملازم إلى الخديو. ومن الخديو إلى الملازم، ذهابا وإيابا كعميل مزدوج، منهك، قصير النفس.. حاول أن يعرف الأسماء والعناوين. الكثير من الشباك ـ اعتمد عليك يا لامبال، سوف تعلمنا بهؤلاء اللصوص.. أردت أن أحصل على جزء لكن.. شبكة «فرسان الظل» مثل «المؤسسة العالمية التجارية من باريس ـ برلين ـ مونت كارلو» تبدو لي مختلفة، بعض المهاويس يخضعونني لضغوط متناقضة وأنا أرهق حتى أموت من الإنهاك. سوف أخدم بلاشك ككبش بكل هذه القوة. أنا أضعف واحد فيهم. العصر الذي نعيش فيه يتطلب سمات استثنائية في البطولة أو في الجريمة، وأنا، فإنني أنشز فعلاً، جيرويت، باتان. أغلق عينيّ كي أستعيد كافة روائح، وأغاني تلك الحقبة، نعم. كانت هناك روائح عفنة في الهواء، عندما يحل الليل بشكل خاص، يجب أن أقول أنني لم أعرف قط غروباً بمثل هذا الجمال. الصيف لم ينته بهم بالموت، والمغامرات التافهة، تغيب باريس. تنتظر أن تدق الساعة. في هذه الروائح المتناثرة التي تكسو واجهات العمارات وأشجار الكستناء. أما بالنسبة للاغنيات مثل

«سوينج تروبادور»، نجمة ريو، فلا أعرف نهايتها. وريجتيللا.. هل تتذكرونها؟. مصابيح العربات مطلية باللون الرمادي. من الطراز الذي أستطيع به تمييز المارة الآخرين على اليمين، قريباً جداً، تنطلق الشعلة اللامعة فوق برج إيفل، كنت أعود من شارع بواسروبير. يتوقف المترو فوق كوبري باسي. كنت أتمنى ألا يتحرك ثانية قبل أن يأتي شخص ليأخذني إلى أي أرض، بين الشاطئين. لا حركة، ولا ضجة، الهدوء أخيراً، وأن أتحلل في الظل. أنسى ومضات الأصوات، واللدغات الكبرى التي يلدغونني بها، وتوجههم يجرني من كل الجهات، يحل خوفي كنوع من الحذر. كنت أرقب بنظرة الشعلة اللامعة. التي تدور، وتبدو مثل ساهر يتابع دائرة ليلية. بكل ملل، يخبو توهجه، وعم قريب لن يبقى سوى خيط من الضوء غير محسوس بالمرة. وأنا أيضاً، بعد دوائر ودوائر، ألف وألف ممشى، ذهاباً وإياباً، أنتهي بان أضيع وسط الظلمات. دون أن أفهم شيئاً. من محطة سيفير ـ لوكورب حتى باسي، ومن باسي إلى سيفير لوكورب. في الصباح. أتوجه في نحو العاشرة إلى الحي العام لشارع بواسروبير، تحوطني أيدي أسرية «ابتسامات، ونظرات صافية نحو هؤلاء الصبية المتميزين» ما الجديد يا لامبال؟ سألني الملازم. أخبرته بتفاصيل ثمينة أكثر وأكثر عن «المؤسسة التجارية العالمية من باريس ـ برلين ـ مونت كارلو». نعم. الأمر يخص أعمال الشرطة التي تبوح بـ «قواعد الكذبات».

رئيساى هذان، هنري نورمان، وبيير فيليبير، جندا نفسيهما في طبقة اللصوص. لصوص، قوادين، مترافعين، اثنان أو ثلاثة أشخاص محكوم عليهم بالاعدام، كل منهم يحتمى ببطاقة شرطة، ومعه تصريح حمل سلاح. مؤسسة تهريب تقع في صيدلية الميدان، سيماروزا، رجال أعمال، مدمنون، نصابون، نصف اجتماعي كأننا نراهم يتجمهرن في «عصور القلاقل»، كل هؤلاء الأشخاص لم يتمكنوا من الاحتماء في مكان عال، ويرتكبون أكثر الانتهاكات. يبدو أن رئيسهما، هنري نورمان قد أملى إرادته في مكتب رئيس الشرطة عند رصيف نهر السين. كما يوجد بعض التوتر أيضاً، بنفس القدر الذي أتقدم فيه في مهمتي. قرأت الذعر والخوف على وجهيهما، فقط ظل الملازم عصي الفهم. «برافو. لامبال! مهمتك مستمرة، خذ، من فضلك، هذه قائمة كاملة لأعضاء» وخدمة «ميدان سيماروزا».

ثم، ذات صباح، بديا لي أكثر مهابة من المعتاد، شع صوت الملازم: «لامبال، عليك أن تقوم بعملية اغتيال». استقبلت الأمر بهدوء كأنني أعد له نفسي منذ فترة طويلة. «نحن نعتمد عليك، يا لامبال. سوف نتخلص من نورمان وفيليبير. اختر اللحظة المناسبة»، دام صمت بينما سان جورج. بيرتي، جاسمين، والآخرون يحدقون فيّ، العين متأثرة، وخلف مكتبه، ظل الملازم ساكناً. مد لي كورفيزار كأس كونياك. انه كأس الإدانة، كما فكرت. رأيت بشكل

غريزي جداً الجلاد واقفا وسط الغرفة، والملازم يلعب دور الجلاد. أما بالنسبة لأعضاء فريقه، فقد كانوا يحضرون الإعدام، وهم يطلقون لي ابتسامات متوقعة: «يا لامبال! فيما تفكر اذن؟» أجبت: «لا شيء». وددت أن أبكي. وأن أكشف موقفي الحساس كعميل مزدوج. لكن هناك أشياء يجب أن نحتفظ بها لأنفسنا. لم أنطق بأى كلمة. هذا كثير بالنسبة لطبيعتي، أما الآخرون فعلى العكس، لم يترددوا في أن يصفوا لي طولاً وعرضاً حالاتهم النفسية، تذكرت تلك العصارى المنصرمة مع شباب ش ف ظ. كنا نتنزه في محيط شارع بواسروبير، في حي فوجيرار. أسمعهم يهذون حين كان بيرنتي يحلم بعالم أكثر عدلاً، وقد أحمرت وجنتاه، أخرج من مفكرته صور روبسبير، واندريه بريتون.. كنت معجبا بهذين الشخصين، كرر بريتني بدون توقف: ثورة»، «استرداد الوعي»، «حان دورنا. رجال فكر» بنغمة جافة أصابتني بالعصبية. كان يضع غليونا، ويرتدي حذاء من الجلد الأسود ـ تفاصيل أثارتني، كورفوازار، كان يعاني، إنه يرى النهار في أسرة راقية، حاول أن ينسى حديقة مونسو. وملاعب التنس في اكس ـ ليبان، وريش بوليفيه التي يلتهمها أسبوعياً بتذوق، عند أولاد عمه. سألني هل من الممكن أن أكون اشتراكياً ومسيحياً في الوقت نفسه. أراد جاسمين منه أن تكون فرانس باندا أكثر قوة. إنه يعجب بهنري دوبورنازل ويعرف أسماء كافة النجوم. كان أوبليجادو يكتب في

«الجريدة السياسية»، شرح لي: «نحن يجب أن نشهد. انه واجب، لا أستطيع أن أسكت». رغم أن الصمت يتعلم بسرعة بالغة: يكفي أن تصيبنا ضربتان هراوة في اللثة. كشف لي بيكبس عن رسائل خطيبته. القليل من الصبر أيضاً، بالنسبة له، فإن الكابوس قد تبدد، وعم قريب سوف نعيش وسط عالم مسالم. سوف نحكى لأطفالنا عن التجارب التي عشناها، سيخرج سان ـ جورج، وماربون ويلبورت من سان ـ سير بطعم البارود، والمشروع المغلق عن «الموت غناءاً». أنا. فكرت في حي سيماروزا حيث يجب أن أعد تقريراً يومياً. محظوظين هؤلاء الصبية الذين يزرعون الخرافات. استعاد حي فوجيرا حالته المدهشة، هادئاً مثل مدينة صغيرة في الأقاليم. الاسم نفسه لـ: «منوجيرار» يثير تساقط أوراق اللبلاب. نبع محاط بالعشب. في مثل هذا التراجع. يمكنهم أن يبقوا أحراراً داخل تخيلاتهم الأكثر بطولية، دون أي مخاطرة. انه أنا الذي يرسله، يدعك الواقع ويسبح في ماء هائج. ظاهرياً، فإن الأمور السامية لا تناسبني قط. وفي نهاية العصرية، قبل أن أركب المترو، جلست فوق مقعد في ميدان أدولف ـ شيريو وتركت نفسي تستمتع للحظات أيضاً، برقة هذه القرية، منزل صغير له حديقة، دير أو بيت مسنين؟ سمعت الأشجار تتكلم، وتمر قطة أمام الكنيسة. لا أعرف من أين جاءني صوت رقيق: فريد جوين يغني ابعث لي زهوراً. هنا نسيت أنني بلا مستقبل. سوف تأخذ حياتي معنى

جديداً. قليل من الصبر، مثلما قال بيبوس، خرجت حياً من الكابوس. وجدت مكان عامل بار في فندق عند أطراف باريس «عامل بار» أمر يبدو مناسبا لذوقي واستعدادي، سوف تقف وراء البار، ويحميك الآخرون، هؤلاء الذين لم يبرهنوا على أي حساب لك. سعداء لتعاطي الكحول. سرعان ما سوف تخذلهم. وسوف يعبر لك أحدهم بعجرفة عن اعترافه بالجميل، مهنة عامل البار بها الكثير من النبل، أكثر ما نعتقد. انه الوحيد الذي يشد انتباه الشرطي أو الطبيب. فيم يتعلق الأمر؟ إعداد الكوكتيل. من الحكم، نوعاً ما، إلى روشتة ضد الألم، من الزنك، يعلن لك بصوت متوسل. كورا سادو؟ ماري بريزا؟ ايتر؟ كل ما يريدونه بعد كأسين أو ثلاثة، سينتبهون لك، يترنحون، وعيونهم تتقلب، ويسهرون حتى الفجر بطول مسبحة مأساتهم وجرائمهم. يسألونك أن تواسيهم، هتلر، بين زغطتين، ينشد اعتذارك. «فيم تفكر يا لامبال؟ ـ في الذباب، أيها الملازم» أحياناً يلحق بي في مكتبه من أجل أن نكون «متقاربين»، وسوف نقوم بهذا الاغتيال. «أنا واثق فيك يا لامبال» وقد كسا صوته بمهابة السلطة، وحدق فيّ بعينيه الأزرق ـ أسود. أخبره بالحقيقة؟ أنها على حق؟ هل أنا عميل مزدوج، أو ثلاثي الأوجه! لم أكن أعرف ماذا كنت أيها الملازم. أنا غير موجود. لم أمتلك يوما بطاقة هوية. حكم عليّ هذا الشرود الرافض بوعد كان يجب أن يتصلب وأن نظهر كفاءة استثنائية. ذات مساء، وجدت

نفسي معه، يستبد بي تعبي مثل فأر، كل ما يحوطني. بدت لي الجدران فجأة مكسوة بقطيفة داكنة، وغزت عاصفة الحجرة. فطن محيط العمارة: المكتب، المقاعد، الدولاب النورماندي، سأل: «ماذا حدث يا لامبال؟» وبصوت بعيد فاجأني. حملق الملازم فيّ كالعادة، لكن عينيه ضاعتا بوميض معدني، كان جالساً وراء مكتبه. الرأس يميل نحو اليمين. تكاد رقبته تلمس كتفه في موقف جبان، رأيته في بعض الملائكة الوردية. كرر: ما الخبر يا لامبال؟.. وبلكنة كان عليه أن يقول: «حقاً. هذا غير مهم»، تثاقلت نظرته نحوى. نظرة محملة ببعض الرقة، وحزن، أحسست أن الملازم دومنيك قد فهم كل شيء وسيغفر لي: دوري كعميل مزدوج (أو ثلاثي) اضطرابي يجعلني أحس أنني هش، في العاصفة، مثل قذاة قش، والألم الذي ارتكبته بالجبن، وللمرة الأولى. يهتم بحالتي، هذه الدماثة قلبتني، بحثت بلا جدوى عن كلمات أكثر رقة. اختفت خشونة وجهه وتوازن وسطه. تقريباً لم يتبق الكثير من العجرفة والطاقة. إلا لأم عجوز ذكية وملولة. تسامح العالم الخارجي، تتحطم على الحائط القطيفة. انزلتنا عبر ظلام مندوف نحو الأعماق. حيث لن يعكر أحد صفو نومنا، تبدو باريس معتمة، في الشعلة اللامعة لبرج إيفل: منارة تشير إلى أننا في قمة الناحية، لم تتلامس هنا أبداً. لا أهمية. همس الملازم: «يجب أن تنام، يا صغيري. تنام» ألقت عيناه آخر ضوء في الظلام. «تنام..» فيم تفكر يا لامبال؟

هزني في كتفي. وبصوت قوي: استعد لهذا الاغتيال. مصير الشبكة بين يديك. لا تفكر.. مسح الغرفة بعصبية، استأنفت الضوضاء إيقاعها المألوف، «برأسي يا لامبال، اعتمد عليك»، المترو يربح، لا موت ـ بيتيه ـ روبليكس ـ جنرال ـ باسي. في التاسعة مساء. تواجدت في حنايا شوارع فرانكلين وفيروز، ولا نبتلي الأبيض، مثلما عاملني الخديو وهو يكافئني على خدماتي. كان عليه أن يمارس مشاعره الشريرة تجاه شباب ال ش ف ظ. الذين كانوا يتجولون في تلك الآونة في سيارة فاخرة مخصصة لأنشطة أقل خصوبة، فقط المارة والمتشردون يدفعون بشكل جيد ويمكنهم أن يسمحوا بمثل هذه الفنتازيا، لا يهم، مع التعب تتبدد الوسوسة، عبرت ميدان تروكاديرو بتمهل، موتور صامت، مقاعد من الجلد الروسي، هذه السيارة البنتلي تعجبني كثيراً. ويبدو أن الخديو وجدها في أعماق جراج في محطة نويلى، فتحت علبة القفازات: أوراق الملاك كانت هناك دوماً، وأيضاً سيارة مسروقة، مطلوب منا الحساب، يوماً أو آخر، يا له من موقف اتخذته. أمام المحكمة، ثم كشف الكثير من الجرائم المرتكبة من «المؤسسة التجارية الدولية في باريس ـ برلين ـ مونت كارلو»، عصابة من الأشرار. كما قال القاضي، لقد استغلوا المأساة. والاضطراب العام «وحوش»، مثلما كتبت مارلين جاكوب أدرت مفاتيح الراديو:

أنا وحدي

مع ألمي...

طريق كليبر، قلبي ينبض أسرع، واجهة فندق بالتيمور ميدان سيماروزا، أمام ٣ مكرر. كوربيو وروبير الشاحب يقفان دائماً في ترقب، رماني كوديبو بابتسامة كشفت عن أسنانه الذهبية. صعدت إلى الطابق الأول، دفعت باب القاعة، كان الخديو يرتدي مئزرة قديمة وردية من الحرير المرصع، أشار لي بيده. كان السيد فيليبير يفحص الفيشات: كيف حال ال ش ف ظ يا صغيري سوينج تروبادور؟ ضربني على كتفي وهو يمدني بكأس كونياك «لا مثيل له» غير موجود، ثلاثمائة ألف فرنك الزجاجة. اهدأ، نحن لا نعرف القيود. ميدان سيماروزا وهذا ال ش ف ظ؟ ما الجديد؟.. لم أحصل بعد على عناوين «فرسان الظل» في نهاية الاسبوع. هذا وعد. وإذا كنا سنعرض شبكتنا في شارع بواسروبير ساعة عصرية، حيث كل أعضاء ش ف ظ. موجودين فيه! فيم تفكر يا تروبادور؟ نصحتهما، من الأفضل أن أقبض عليهم الواحد تلو الآخر. «ليس لدينا وقت نضيعه يا تروبادور» هدأت صبرهما، وأنا أعلن لهما من جديد عن معلومات محددة، ذات يوم، سوف أزعجهما بأى طريقة، فكى أتخلص منهما، يجب أن التزم بارتباطاتي. وسوف تجد «ضربة الشبكة» مكانها، كنت استحق أخيراً هذا الوصف «أجير» الذي سبب لي وخزاً في القلب، غيبوبة في كل مرة

اسمعهما يرددان «أجير»، جاهدت رغم ذلك في أن أوخر هذا الاستحقاق وأنا أشرح إلى رئيسيّ أن أعضاء ش ف ظ كانوا مسالمين، وانهم غلمان خياليون، تحفهم المثالية. هذا كل شيء، لماذا لا نترك هؤلاء الحمقى اللطاف يخرفون؟ انهم يعانون من مرض: الشباب سريع الاستسلام.

من هنا ولبضعة أشهر، سوف يكونون أكثر تعقلاً. الملازم نفسه سوف يتخلى عن النضال. ثم فيم تتعلق المعركة اللهم إلا ثرثرة حماسية بها كلمات من نوع عدالة، تقدم، حقيقة، ديمقراطية، حرية، ثورة، شرف، هل يعود الحزب ولا يتوقف؟ بدا لي كل هذا بدون أي قيمة حسب رأيي، فإن الرجل الوحيد الخطر هو لا ـ مبا ـ ل. الذي لم أعرف هويته قط، خفى، لا يمكن الإمساك به، هو الرئيس الحقيقي ل «ش ف ظ»، يتصرف بطريقة أكثر فجاجة. يتكلم عن شارع بواسروبير، بارتباك وخشية وإعجاب في صوته. لام ـ با ـ ل! من يكون؟ عندما سألت الملازم، بدا هارباً مثل اللصوص. والمبيعات التي تتم في هذه اللحظة، لامبال لا يدخرهم. لن يختزلهم أبدًا، يضرب لامبال بسرعة وقوة. سوف نطيع لامبال بعينيه المتخيلتين، وبنظام عجيب، لامبال أملنا الوحيد.. لا أستطيع الحصول على تفاصيل أكثر نفعاً. قليل من الصبر ونطرد هذه الشخصية الغامضة. كررت إلى الخديو، وفيليبير أن القبض على لامبال يجب أن يكون موضوعنا الوحيد. لام ـ با ـ

ل! أما الآخرون، فهم لايدخلون في الحسبان، ليسوا سوى ثرثارين لطاف. سألت ماذا نخبي، لهم. «سوف نرى، أعطني أولاً معلومات عن لامبال هذا. هل تسمعني؟».. كست فم الخديو تكشيرة من النوع الشرير. أما فيليبير، فهو يفكر، ويكرر وهو يمسح على شاربه: «لام ـ با ـ ل، لام ـ با ـ ل ـ سوف أصفى حساب لامبال هذا»، هكذا علق الخديو. ليست هذه لندن، ولا فيش، ولا الأمريكان الذين سيخرجونه. كونياك؟ كرافن؟ اخدم نفسك، يا صغيري. أعلن فيليبير: سوف نفاوض سبستيانو دل بيومبو، هذه مظاريفك من العمولة عشرة في المائة.. مد لي مظروفاً أخضر باهتاً. «احضر لي غدا بعض البرونز» الآسيوي. سوف نتصل بعميل. أتذوق هذا العمل الأضافى الذي كلفاني به: ان أكتشف عملا فنيا وأن أحضره في الحال إلى ميدان سيماروزا. في الصباح، دخلت بيوت الأثرياء صفوة الذين تركوا باريس عقب الأحداث، يكفي أن أفك القيود، وأن تظهر المفتاح إلى البواب وأنا أظهر بطاقتي كشرطي. بحثت بدقة في المنازل المهجورة. والتي رحل ملاكها، وأن أتركِ فيها قوائم موضوعية: باستل، فازات، سجاجيد، كتب، مسودات، لا يكفي هذا، رحلت بحثاً عن قطع فرش ـ عمارات، وأماكن مؤكدة، ومخابئ محتملة، في هذا العصر من المتاعب حيث المجموعاتِ الأغلى ثمناً. صوامع الضاحية، حيث ينتظرني رجال جوبلز، وسجاجيد إيرانية، باب جراج قديم. حقل متكوم من

لوحات السادة. في كهف، أو في صندوق صغير بداخله جواهر أثرية. من عصر النهضة، تحملت هذه الخسارة بقلب خفيف، وبنوع من التخفف الذي ضجت منه ـ فيما بعد ـ أمام المحاكم. سوف نعيش أزمنة استثنائية. الطيران ووسائل المواصلات صارت أموالاً سائلة والخديو حكم على كفائتي، وكلفني باستعادة المقتنيات الفنية خاصة المعدني منها غير الحديدية. عرفت متعة جمالية كبرى. على سبيل المثال. أمام لوحة لجويا. تمثل اغتيال الأميرة لامبال. اعتقد مالكها أنه يحتفظ بها مخفياً إياها في خزانة حصينة في بنك فرانكو ـ صرب، عند شارع ملدر. يكفي أن أبرز بطاقتي كشرطي كي يتركوني أفحص هذه المقتنيات الفنية. تعكس كل الأشياء الموجودة. عصراً جاداً. جعل مني شخصا «أقل لمعانا»، علاّمة، قاتلاً، ربما الأكثر شراً من أي شخص آخر، تتبعت الحركة. هذا كل شيء. لم أعهد في الشر أي جاذبية خاصة، ذات يوم قابلت رجلا عجوزاً محملاً بالخواتم والدانتللا، شرح لي بصوت مزيف أنه مزق الصور الإجرامية، في مجلة «المخبر»، ووجد فيها مجالاً «نافراً» و «مصطنعا»، مدح لي وحدته. وكلمني عن واحد منهم، أوجين فيدمان، الذي يسمى «ملاك الظلام» انه نوع من الأدب، أخبرته أن فيدمان في يوم إعدامه ارتدى حذاء خفيفاً من الكريب. اشترته له أمه من قبل في فرنسا القوية، وأنه كان يحب الناس. عليه أن يتوقف عند التفاصيل البائسة مثل هذه،

أما الباقي فلا أهمية له. مسكين فيدمان! في الساعة التي أكلمكم فيها. فإن هتلر كان نائماً، وهو يمص إبهامه، ألقى إليه نظرة شفقة. ثم نبح، ككلب يحلم ينبح، ويتلوى، أمسك تجويف يديّ - فيم تفكر يا سوينج تروبادور؟ - في فوهررنا، السيد فيليب - سوف نبيع فرانز هالس قريباً جداً. وسوف تنال خمسة عشر في المائة عمولة. إذا ساعدتنا في اصطياد لامبال. سوف أمنحك مكافأة ٥٠٠،٠٠٠ فرانك، ماذا يفعل الشاب، هل لي في قليل من الكونياك؟ رأسي يدور ورائحة الزهور بلا شك، كانت الغرفة غائصة بالداليا والأوركيد. مشروب كبير من الورد، بين النافذتين تتخفى نصف الصورة الذاتية لـ دربل - رسبيرو، في العاشرة مساء. غزوا الحجرة الواحد تلو الآخر، استقبلهم الخديو في رداء سموكنج مرصع باللون الأخضر، لوح السيد فيليبير إشارة برأسه. وهو يفحص فيشاته من جديد، ومن وقت لآخر، كان يمشي إليهم، مجريا محادثة قصيرة معهم، يدون بعض الملاحظات، استخدم الخديو الكحول والسجائر، وفرن صغير، سيدي وسيدتي دربل - رسبيرو، فوجئنا برؤيتهما في قاعتهما. مجتمعين معاً، كان هناك - ال «ماركيز» ليونيل دوزيف، الذي حكم عليه سابقاً بتهمة السرقة، فاقد الثقة، يخفى المسروقات، يحمل ديكورا قانونيا. كوستا شيسكو، موظف بنك روماني. تأملات بورصية، وفشل احتيالي، البارون جيتان دولاستاذ، راقص، واجتماعي، جواز سفر مزدوج

ومتحول، وفرنسي، بولس دوهلدر، لص لطيف، رشيدفون روزنهايم، السيد المانيا ١٩٣٨، غشاش محترف. جان ـ فاروق دوميتود. صاحب سيرك الخريف و«الساعة الرمادية»، قواد، ممنوع من الإقامة في كل دول الكومنولت. فردينان بوبيه، المسمى «باولو هياكاوا»، مندوب تأمين، الرأس محترقة، مزيفة، وتصرفات مغشوشة، أوتو دوسيلفا، و«الريكو بلانتادور» جاسوس بنصف الثمن، «الكونت» باروتسي خبير في أمور الفنون، والمورفين. داركيبرو يسمى «دوبلبوا» محامي شارد، المجوسي إيفانوف. نصاب بلغاري. صانع وشم رسمى لكنائس الأقباط.. أورشارفي، مخبر في ولاية، في الأوساط الروسية البيضاء، ميكى الجيلان.. «غناجة» عاهرة، مثلي الجنس. قائد الطيران السابق كوستنتث. جان لوهولر، صحفى باحث قديم عن كنوز نادى باتوا، ونصاب، الاخوان شابوشنيكوف لم أعرف عن وضعها الاجتماعي ولا الرقم الصحيح، وبعض النساء: لوسي أونستاين المسماه «السيدة سلطانة» راقصة سابقة من نوع، «ريجوليت»، ماجدة واندوريان، مديرة فندق البالمر، «اجتماعية وكتومة»، فيوليت موريس بطلة في الوزن الثقيل والرصين، ترتدي دوماً ملابس الرجال، وامبروزين ماروزي. أميرة بيزنطية مدمنة، ومحامية. سيمون بركيرو وايرين دونرانزيه موظفة فندق صغيرة سابقاً واحد ـ اثنين ـ اثنين، «البارونة» ليديا ستال التي كانت تحب الشمبانيا والزهور الطازجة. كل هؤلاء

الأشخاص يجمعهم ٣ مكرر مع الانضباط. لقد غزتهم العتمة، فجأة، في فترة من اليأس والبؤس، بظاهرة يدوية لجيل غريزي، أغلبهم يشغلون مكانة في «المؤسسة التجارية الدولية باريس - برلين - مونت كارلو» زيف، ميتدود، وهلدر يديران إدارة الجلود. بفضل مهارة الوسطاء، يتزودان بعربات الجلود مثل م.ن.هـ.ب.ب.ر.م في الحال اثنتى عشرة مرة الثمن المفروض، كوستاشيسكو، هاياكاوا، مواد مشحمة وزيوت معدنية. القائد السابق كوستنتين يستعرض في قسم أكثر حصراً وربحية، زجاج، عطور، جلود شاموا، كعك جاف، ولولب. أما الآخرون فإن الخديو كلف بمهام خطيرة: كلف الاستاذ بالمراقبة وحماية الأعماق التي تصل كل صباح إلى ميدان سيماروزا بكميات معتبرة.. دورداسيلفا واودشيارفي يهتمان بإعادة الذهب، والأموال الأجنبية، ميكي الجيلان، باروتسي و«البارونة» ليديا ستال قاموا بفهرسة الفنادق المتميزة حيث يمكنني أن أحتفظ بالتحف الفنية. هاياكاوا وجان لوهولو ميتوليان إمساك دفاتر الحزمة. داركييه يخدم في شؤون المحاماة، أما الاخوان شابوشنيكوف، فليست لديهما أي وظيفة محددة وسيدوران حول نفسيهما هنا وهناك، سيمون بوكيرو، وايرين دونزانزية فقد كانا «السكرتارية» التي تخدم الخديو. الأميرة ماروزي تدبر لنا توطئات قوية ذات مكانة في الأوساط الشعبية والمالية، السيدة سلطانة وفيوليت موريس تمثلان الشرف الرفيع كعلامة، ماجدة داندوريان امرأة

الدماغ، والعمل فقد اقترحت شمال فرنسا، وغادرت إلى ٣ مكرر بكيلو مترات مربعة من قماش الأغطية والصوف المغزول، أخيرا لا ننسى أن نحدد الأعضاء من الأشخاص المكلفين بمهام شرطية تماماً: توتي بريتون، إنسان تافه، خدم في الفيلق، تعذيبي وحذر، جوريوكرو مدير حانة، ماخور. فيتال ـ ليا المسمى «خيشوم الذهب» قاتل بالأجر، أرمان المجنون: سوف أحن لهم، أحن لهم جميعا، كوديبو ودوبير الشاحب، تخريبيان يعملان كبوابين، والحارس الشخصي، دانوس. «الماموث» أو «بيل الضخم»، جواري «الأمريكي» قناص يعمل في القياس... سيطر الخديو على كل هذا العالم الصغير المبتهج مثل الواقع القانوني كما أطلق عليهم فيما بعد «عصابة ميدان سيماروزا»، ونحن ننتظر، كانت المهام في أحسن حال. تكلم زيف المتخصص في استوديو فيكتورين، الدواردو، وفولي. جرام كون هيلدر «مؤسسة المشاركة العامة، التي تحتكر كل فنادق الكوت دازور، كوستا شيسكو اشترى عشرات العمارات. أعلن روزنهايم أننا سوف نحصل قريبا على فرنسا بأجمعها مقابل قطعة خبز، وسوف نعيد بيعها بثمن أكبر» سمعت، راقبت كل هذه القوى. وجوههم تحت الثرايا. يملأها بالعرق، يتعجلون الحسابات، وعمليات السمسرة... والعمولات.. مخزونات... عربات... هوامش ربحية... الاخوان شابوشنيكوف

صارا متعددين شيئاً فشيئاً، وهما يملأن كاسات الشمبانيا، أدارت السيدة سلطانة يد الجرامافون، بينما غنى جوني هس:

ضعوا أنفسكم

في بهجة

وانسوا

آلامكم

فكت مشدها، وخطت خطوة سوينج. وحذا الآخرون فعلتها. دخل كوريبو، دانوس، وروبير الشاحب القاعة. واجتازوا ممرا بين الراقصين، حتى بلغوا السيد فيليبير، همسوا له ببعض الكلمات في الأذن، نظرت من النافذة، سيارة، مطفأة الأنوار، أمام ٣ مكرر يحمل فيتاله ـ ليكا مصباحاً كهربياً، فتح روكرو البوابة. رجل، يحمل أصفادا في يديه، دفعوا «جواري» بكل قسوة نحو الدرابزين، فكرت في الملازم، وفي غلام فوجيرار، ذات مساء سوف أراهم مقيدين هكذا. تجاوزهم بريتون إلى المغناطيس. ثم. «هل أستطيع أن أعيش بكل هذا الندم؟» برينتي وأحذيته الجلدية السوداء، بيكابوس ورسائل خطيبته. العينان الزرقاوان عناقية من لمسات جورج. أحلامهم. وكل الخرافات انطفأت في كهف ٣ مكرر على حوائط ملطخة بالدم، إنها غلطتي. بما يعني أنه كان يجب ألا أعتقد أنني استخدم خفة المصطلحات «مغناطيس»، «عتمة»، «أجير»،

«قاتل بالأجر»، استحضرت كل ما رأيته، وكل ما عشته. دون أي محسنات. لا أبتكر شيئاً، كل الأشخاص الذين أتكلم عنهم موجودون. أدفع قوتهم حتى أشير إليهم بأسمائهم الحقيقية. أما ذوقي الشخصي. فسوف يذهبون إلى الورود البرية، حديقة. القمر المضيء، وتانجو الايام السعيدة. قلب طائش. ليس لديّ حظ. اتفقنا، أصعد إلى النفق، تأوهاتهم انتهت بأن خنقتهم الموسيقى. جوني هيس

طالما أنني هنا

فالإيقاع

هنا

فوق الجناح

الذي سيحملك

اثارتهم السيدة سلطانة وهي تطلق صراخات حادة. حرك إيفانوف «خاتمها المعدني الخفيف»، يتقلب وهو ينفخ، أصبح الرقص أكثر إيقاعا، قلبوا زهرية داليا في الممر وقد استعادوا أجمل اشاراتهم.

الموسيقى

هي

المرشح السحري

انفتح الباب على مصراعيه، دفعاه كوديبو ودانوس باكتافهما، لم

ينزعا الأصفاد، وجهه غارق في الدم، ترنح وطار وسط القاعة، ظل الآخرون في سكون حذر، وحدهما، الأخوان شابوشنيكوف، كأن شيئاً لم يحدث، جمعا بقايا الزهرية وأعادا ترتيب الزهور، تقدم أحدهما، وهو يرتدي اللبدة، نحو البارونة ليديا، ومد لها بزهرة أوركيد. ـ إذا لم تقع دوماً فوق هذا النوع من المدعين الصغار، فالأمر سيكون مثيرا للملل لنا، علق السيد فيليبير ـ قليل من الصبر. بيير. انتهى بأن نقينا القطعة ـ أخشى لا، هنري ـ حسنا سنجعل منه شهيداً. يلزمنا ـ كما يبدو ـ شهداء، أعلن ليونيل دوزيف بصوت رخو: الشهداء، انه أمر غبي ـ أنتم ترفضون الكلام؟ سأله السيد فيليبير ـ همس الخديو: لن نضغط عليكم طويلا. إذا لم تجيبوا فهذا يعني أنكم لا تعرفون شيئا، لكن إذا كنتم تعرفون شيئاً ما، أعلن السيد فيليبير، فمن الأفضل أن تقولونه تواً..

رفع رأسه، بقعة حمراء فوق سجادة فندق لاسفونري (المصبنة)، في الجهة التي تستريح جبهته. يلمع ضوء حار في عينيه الأسود أزرق عناقية[١] (مثل عينا سان ـ جورج) من الاحتقار. يمكنه أن يموت من أجل أفكاره. صفعه الخديو ثلاث مرات لتوه، لم يخفض عينيه. ألقى فيوليت موريس كأس الشامبانيا في وجهه ـ من فضلك يا سيد، همس الساحر إيفانوف. إلا تريد أن تكشف لي

---

(١) من عائلات النبات.

يدك اليسرى؟ يمكن أن نموت من أجل أفكارنا ردد على الملازم بلا تكرار: نحن جميعاً مستعدون أن نموت في سبيل أفكارنا وأنت أيضاً يا لامبال؟.. لم أجرؤ أن أبوح له أنني إذا كان يجب عليّ أن أموت. فبسبب المرض، والخوف، والشجن ـ صرخ زيف: قف. وطوح زجاجة الكونياك في وسط جبهته ـ يدك، يدك اليسرى، توسل إيفانوف ـ توسلت السيدة سلطانة: أخبركم أنه سيتكلم. وقامت بتعرية كتفها بابتسامة متملقة ـ تمتمت البارونة ـ كل هذه الدماء، استراحت جبهته من جديد على سجادة الصافونري. رفعه دانوس وسحبه خارج القاعة، وبعد دقائق، أعلن توني بريتون بصوت أصم: لقد مات. مات دون أن يتكلم. استدارت السيدة سلطانة وهي تهز كتفيها، حلم إيفانوف، وقد ركزت عيناه نحو السقف، علق بولس دوهيلدر. ومع ذلك هناك أشخاص أغبياء ـ أنماط عنيدة، علق الكونت باروتسي: هل تعني. أن لديّ ما يكفي من اعجاب؟ أعلن السيد فيليبير. انها المرة الأولى التي أرى فيها شخصا يقاوم جيداً. الخديو: غلمان من هذا الطراز. يا بيير، يجعلونا نقيم عملنا... وفي منتصف الليل، استبد بهم نوع من الأرق، جلسوا فوق الارائك والمساند. والوسائد. راجعت سيمون بوكير ماكياجها أمام المرآة الفينسية الكبيرة، فحص إيفانوف بمهابة اليد اليسرى للبارونة ليديا ستال، تناثر الآخرون في قوائم نظيفة. في مثل هذه الساعة أخذنا الخديو في محيط النافذة كي يتكلم عن

وظيفة رئيس الشرطة.. الذي سوف يحصل عليها بالتأكيد، كان يفكر منذ وقت طويل، منذ أن كان طفلا، في توبة القديس أسيس. ثم في بردعة «آف»، وفي سجن فرسن، مشيراً إلى صورة السيد دربل ـ رسبيرو، وحدد الميداليات التي يمكن أن نراها فوق صدر هذا الرجل. يكفي أن تضع رأسك على رأسي، ستجدني رساماً ماهراً. ابتداء من اليوم، سوف اسمى هنري «دردربل ـ رسبيرو»، كرر بشكل مدهش: السيد رئيس الشرطة هنري «دردربل ـ رسبيرو». مثل هذا العطش من الاحترام قلبني، لأنني لاحظتها عند أبي الكسندر ستافيسكى. احتفظت معي بالرسالة التي كتبها إلى أمي قبل أن ينتحر: «ما أسألك إياه بشكل خاص، هو أن تربي ابننا على الشرف والنزاهة، وعندما سيبلغ الخامسة عشر، راقبيه كي يكون قد تم ارشاده بشكل جيد في الحياة، كي يكون رجلا شريفا» اعتقد أنه، أيضاً، سوف يحب أيامه في مدينة صغيرة بالريف، وأن يجد الهدوء والصمت العبق لسنوات الضوضاء، الاعياء، والسرابات، والزوابع الضائعة. يا لأبي المسكين! سوف ترى. عندما سأكون رئيس شرطة، فإن كل شيء سيتدبر.. يهمس الآخرون بصوت خفيض. واحد من الأخوين شابوشنيكوف أحضر طبقاً من البرتقال. لم تكن هناك بقعة دماء وسط الصالة، وأزيائهم المرقشة يمكن أن تجعلنا نعتقد أننا في صحبة جيدة، السيد فيليبير يرتب فيشاته وهو يجلس أمام البيانو ينفض الغطاء بمنديله، يفتح الغطاء، يعزف

سوناتا «ضوء القمر»، همس الخديو: رجل الميلو فنان حتى أطراف أظافره، أتساءل ماذا يفعل بيننا. صبي بمثل هذه القيمة. اسمعوا! «أحسست بعينيّ تتسعان بشكل ملحوظ تحت تأثير شجن أنهكته الدموع». بكل هذا التعب الذي مده لي متيقظاً. يبدو لي أنني منذ زمن طويل أمشي في الليل بإيقاع هذه الموسيقى الحزينة، والعنيدة غطت ظلال ظهر سترتي، وهي تسجنني من جهتين، تجعلني أنتمي إلى «لامبال» أحياناً و«سوينج تروبادور»، تدفعني من يأسي إلى سيفير لاكورب. ومن سيفير لاكورب إلى بولس، دون أن أفهم شيئاً في قصتهم. امتلأ العالم بشكل عفن بالضجيج والغضب، بلا أي أهمية. مررت وسط هذه الإثارة في حالة من أحلام اليقظة. العينان مفتوحتان انتهى كل شيء بالتهدئة، الموسيقى البطيئة التي يعزفها فيليبير بإتقان شيئاً فشيئاً، الكائنات والأشياء، أنا واثق في هذا. تركا القاعة، بكلمة من الخديو كنوع من الترضية: «حاولوا ترضية لامبال بأسرع ما يمكن. انه يلزمنا» تقاطعت ضجة سياراتهم، وأمام مرآة فينسيا صحت بشكل غريزي: أنا أميرة لامبال. نظرت إلى نفسي بشكل مباشر في عيونهم، وقد أسندت جبهتي على المرآة: أنا الأميرة لامبال. يبحثون عنك قتلة في الظلام، إنهم يدققون، يحتكون بك على الأثاث. تبدو الثواني كأنها لا تنتهي. سوف تلتقط أنفاسك. هل ستجد عاكس تيار؟ وكيف ستنتهي. لم أقاوم الإعياء منذ فترة طويلة، مشيت نحو الخديو، عيناه الكبيرتان

مفتوحتان، ألصقت وجهي بوجهه: أنا الأ ـ مير ـ ة لام ـ با ـ ل. رئيس ال ش ف ظ. على الأقل. الملازم دومنيك لم يقم فجأة. بصوت مهيب: «هناك خائن بيننا يسمى «سوينج تروبادور» ـ إنه أنا، يا حضرة الملازم» رفعت رأسي، فراشة ليل تطير من ثريا لأخرى. حتى أتفادى احتراق جناحيها أطفأت الأضواء. لا يوجد أحد له مثل هذا الانتباه الدقيق حسب تقديري. يجب أن أبقى وحيداً، أمي موجودة بعيداً عن هنا. في لوزان، قوية لحسن الحظ، يا لأبي المسكين الكسندر ستافسكى. لقد مات، ونستني ليلي مارلين، وحيداً. لم أجد لي مكاناً في أي ضاحية.. حتى في شارع بواسروبيرو، إلا ميدان سيماروزا. على الضفة اليسرى أخفيت الشباب الصغار ل «ش ف ظ» نشاطي كمخبر عند الضفة اليمنى. عنوان «الأميرة لامبال» كما عرض عليّ بشكل ملول. من أنا بالضبط؟ أوراقي؟ جواز سفر مزيف. غير مرغوب فيه في كل مكان. هذه الحالة العابرة منعتني أن أنام. لا أهمية، ثم أن عملى الإضافى هو أن أستعيد «الأشياء الثمينة»، أمارس في ٣ مكرر وظيفة حارس ليلي، بعد رحيل السيد فيليبير، والخديو، وضيوفهما. يمكنني أن أنسحب إلى غرفة السيد دوبال ـ رسبيرو، لكنني ظللت في القاعة، مصباح الأباجورة الرمادي يعكس حولي مساحات كبيرة من الظلال. فتحت كتابا «أسرار فارس ايون». في خلال بضع دقائق، وضع في يدي، تملكني يقين: لن أخرج حياً من هذه القصة الحزينة. تشع

في رأسي، فقدت زهور القاعة أوراقها، وشخت بسرعة مهولة. ما أتاح لي للمرة الأخيرة أن أقف أمام مرآة فينسيا حيث واجهني وجه فيليب بيتان، لمحت عينيه على وجه السرعة، الجلد وردي تماماً انتهى بأن حولني إلى الملك لير، لاشيء، أكثر طبيعية، احتفظت منذ الطفولة ما يكفي من مخزون الدموع. أيكفي، على ما يبدو، للتخفف وأنا أبذل مجهوداتي اليومية. لم أعرف هذه السعادة. إذن فالدموع تنبع من داخلي، مثل حامض. ما يفسر غريزتي التي شاخت، أخبرني الطبيب: في سن العشرين، سوف تكون لك ملامح الملك لير، أردت أن أقدم نفسي في هيئة أكثر سعادة. هل هذه غلطتي؟ كنت أملك في البداية صحة جيدة، وروحا برونزية عالية، لكنني جربت الشجن الأكبر. الأكثر حيوية ما أضاع مني النوم، بقوة أن تظل مفتوحة، ظلت عيناى متسعتين عن طبيعتها. نزلتا حتى مناديلي، شيء مر: يكفي أن أنظر وأن ألمس شيئاً حتى يتحول إلى تراب. في القاعة، فإن الزهور قد جفت وتناثرت كؤوس الشمبانيا فوق الحامل، الخشب، المدفأة، سنرجع عبيداً، بالغى القدم.. ربما أن تعطي الـ ٢٠ من يونية ١٨٩٦ من السيد «بل - سبيرو» على شرف كامي دي جاس. راقصة الفطرة. مظلة منسية، وأعقاب سجائر تركية. وكأس من البرتقال مشروب نصفه. هل هو فيليبير الذي كان يعزف على البيانو طوال الوقت؟ حيث الآنسة ديلو دارسيل، هل ماتت في سن الستين، أعارني نقطة دم إلى أمور أكثر

معاصرة، كنت أجهل اسم هذا البائس. يشبه سان ـ جورج أثناء ما كانوا يمررون له الدخان. فقد قلمه الرصاص، ومنديلا به حرفين س. ف: انها الدليل الوحيد لإقامته فوق الأرض.

فتحت النافذة، ليلة شتاء بالغة الوضوح، والدفء، كأنها تبدو بلا غد. وكأن الكلمات «ترد الروح» تلفظ التنهيدة الأخيرة.. التي انتابت روحي. لقد مات العالم أثر انهاك بالغ الرقة، وبعذاب شديد البطء. أبواق السيارات تعلن لي عن إطلاق المدافع. وهي تنتحب، لم أبلغ سوى دوران طبلة. استمر هذا ساعتين أو ثلاث. قنابل فوسفورية، باريس في الفجر ستكون مغطاة بالأنقاض، خسارة. كل ما كنت أحبه في مدينتي لم يعد موجوداً منذ فترة طويلة: الحزام الصغير، بالونة ترن، المدينة البومبية. والحمامات الصينية. انتهت بوجود حالة من اختفاء الأشياء. أسراب لا تخترق شيئاً، تصطف فوق المكتب وجوه لعبة الماهو ـ نج التي تنتمي إلى طرف البيت، ارتعدت الجدران. وانهارت من لحظة لأخرى، لكنني لم أقل كلمتي الأخيرة، ومن شيخوختي في وحدتي بضعة أشياء أشبه بفقاعة تخرج من طرف قشة. انتظرت، اتخذ هذا شكل عملاق أحمر الشعر، أعمى بالتأكيد، كاد أن يضع عوينات سوداء. فتاة صغيرة ذات وجه مجعد. سميتهما كوكولاكور وآزميرالدا بائسين. عاجزين دائماً صامتين. هبة ريح، حركة يكفي أن تحطمهما. ماذا سيصيران بدوني! وجدت أخيراً سبباً للحياة، احبهما. وحوشي

المساكين. لا أحد يمكنه أصابتهما بأذى. بفضل المال الذي أكسبه في ميدان سيماروزا، في اشارة نهت، أكدت فهمى لكل الامكانات المتاحة. كوكولاكور، آزميرالدا. اخترت الاثنين كي يكونا الأكثر تجردا في الأرض، لكن لم تكن هناك أي حسية في حبي. حطمت كل قيد بين الفكرة الأقل أهمية في رأيهما. لا شيء سوى أن أفكر فيهما، أحسست أنني مأخوذ بغضب قاتل. وحزم من شعلات حمراء تحرق عيني، اختنقت، لن ألمس طفلاي. الشجن الذي أحسسته، يمكنه أن ينتشر في صفاته ويمكن للحب أن يستعيد قوته، لا أحد يمكنه أن يقاوم هذا التآكل. حب بالغ الاكتساح من الملوك، وصواعق الحرب، و«الرجال العظماء» يصبحون، تحت عينيّ، أطفالاً مرضى، مثل آتيلا. بونابرت، ترملان، جنكيز، هارون الرشيد، وآخرين أيضاً يستحثون أن أعتبرهم خارقين، يبدون لي بالغى القوة، مثيرون للشفقة، هؤلاء «التيتان» المزعومين لا يمكن مسهم مطلقاً، وأنا أنظر إلى وجه أزميرالدا. تساءلت أن هل أرى هتلر هناك، فتاة صغيرة جداً مهجورة، تقوم بعمل فقاعات الصابون بجهاز قدمته إليها. أشعل كوكولاكور سيجاراً. منذ أن عرفتهما لم يتكلما قط كلمة. صامتان، بالتأكيد، تنظر آزميرالدا والفم فاغر بفقاعات تتفجر في اتجاه الثريا. كوكولاكور ينهمك في إتمام دائرة الدخان، سعادات متواضعة، أحبهما، في ضعفى، وأكون سعيدا وأنا في صحبتهما. ليس لأنني أجد هذين المخلوقين

أكثر حركة. أكثر قابلية للأصابة من أغلب البشر، كلاهما يمنحني شفقة أمومة وحرمان، كوكولاكور وآزميرالدا، يلتزمان الصمت، لا يتحركان. الصمت، السكون بعد أن دام الكثير من الزعيق والحركات غير المجدية. ألم أجرب الحاجة في أن أتكلم؟ انهما أصمان، وهذا يعني الأفضل، إذا بحت بألمى لأحد ممن يشبهني فسوف يتركني في الحال، وأنا أفهم هذا، ثم أن مظهري الطبيعي يجعل «الأخوات الروح»، ملتحياً بلغ المائة، مع العيون التي تأكل وجهه، يمكن أن يعزي الملك لير، لا أهمية. على ماذا يعتمد كوكولاكور وآزميرالدا. نحن نعيش حياة أسرية، في ميدان سيماروزا. نسيت. الخديو والملازم، سواء كانا لصين، أم بطلين، فقد أتعباني. لقد بلغ حد الاهتمام بقصتهما أن أعمل على مشاريع الغد، تابعت آزميرالدا أمور البيانو، أما كوكولاكور فقد كان يلعب معي لعبة الماهونج، وتعلم رقصة السوينج، أردت أن أضايقهما، غزالاتي، الاطرشين ـ الأبكمين. أن أمنحهما تقدير جيد جداً. لم أكف عن النظر إليهما. حبي يشبه ذلك الذي أحسه نحو أمي، على كل، فإن أمي تعيش في ملجأ في لوزان. أما كوكولاكور وآزميرالدا، فإنني أقوم بحمايتهما. نحن نسكن في منزل حقيقي. يخصني منذ وقت طويل، أوراقي؟ اسمي نفس مكسيم «بل رسبيرو» وأمامي الصورة الذاتية لأبي، ثم ذكريات.

فى أعماق كل درج

عطور

فى الصندرات...

ليس لدينا شيء نخشاه، الضوضاء، قسوة العالم الذي يموت أمام مدخل ٣ مكرر. أفكر فيهما، صامتاً، كوكولاكور وآزميرالدا صعدا كي يناما. سرعان ما يناماان. بكل الفقاعات التي تطلقها آزميرالدا. تنطلق كي تغوص في الهواء، وترتفع نحو السقف، غير واثقة، أحبس أنفاسي، إنها تتلاشى عند الثريا، وهنا ينتهي كل شيء، لم يعد هناك وجود لكوكولاكور وآزميرالدا، ظللت وحدي في القاعة لا أسمع صوت المطر الفوسفوري. فكرة أخيرة مؤثرة عن رصيف نهر السين، محطة أورساى، ومحطة الحزام الصغير. ثم وجدت نفسي عند طرف الشيخوخة في منطقة ـ سيبيريا التي تسمى كامتشانكا، لا تنموا فيها أي خضرة. جو بارد وجاف، ليال بيضاء بالغة العمق. لا يمكن أن نعيش في مثل هذه خطوط العرض، وعلماء الأحياء منشغلون بالجسد البشري. انطلقت ألف ضحكة، حادة، قاصمة، مثل تحطيم زجاجة. وهكذا السبب: وسط هذه الحزن الرئيسي تحس بتحرر آخر رابطة تربطك بالعالم. لن يبق أمامك شيء عدا أن تموت. ضحك. الساعة الخامسة صباحاً، يمكن أن يكون الغروب ـ فراش من الرماد يغطي أثاث القاعة، نظرت إلى كشك الميدان وتمثال ـ توسينا ـ لوفرتير. بدا لعيني كأنه تصوير للذكريات. ثم قمت بزيارة المنزل. طابقا وراء

طابق. حقائب متفرقة في الغرف. لم يكن لديهم الوقت لإغلاقها، واحدة منهن تضع قبعة من نوع كروستادت، رداء من صوف الشيفرية، البرنامج المصغر للعرض المسرحي فيتادوير. صور تبرز مطربي الباتينور جودريش، كيرتش. ودفاتر تذكارية وبعض الألعاب القديمة، لم أجرؤ، في التفتيش عن أشياء أخرى. انها تتضاعف حولي: حديد، وشجر الصفصاف، زجاج، جلد روسي، العديد من الدواليب الحائطية تملأ الممر بطوله، صار ٣ مكرر ضخما مفعما بالمخزون المنسي. هذا المتاع لا يهم أحداً. انها تغلق من جديد الأشياء الميتة: نزهتان أو ثلاث مع ليلي مارلين من ناحية باتينول. المشكال قُدمت لي كهدية في عيد ميلادي السابع. فنجان من نبات رعى الحمام أعطته لي أمي ذات مساء، لا أعرف في أي سنة. كل التفاصيل الصغيرة لحياة، أردت أن أعد منها قائمة كاملة، فيم ذلك؟

يمر الوقت سريعاً جداً

ويوماً

تغادرنا الحياة

كان اسمى مارسيل بتيو، وحدي وسط كل هذا المتاع. لا فائدة من الانتظار، القطار لن يأتي، أنا غلام بلا مستقبل. ماذا فعلت بشبابي؟ توالت الأيام وراء الأيام وتكومت في الفوضى مم يملأ

خمسين حقيبة. أطلقت رائحة حادة ـ رقيقة أصابتني بالغثيان. تركتها هنا. انها تعفن المكان، أن تغادر هذا الفندق المميز بأسرع ما يمكن، حيث تكتسي الحوائط، بالجلد والصور الذاتية للسيد دوبل ـ رسبيرو وقد وقعت في التراب، ملأها العنكبوت التي نسجت خيوطها حول الثريا، دخان يصعد من الكهف، بعض البقايا الآدمية تحترق فيها بلاشك. من أكون؟ بتيو؟ لا ندور في الممر، بخار أخضر يتصاعد من الدواليب الحائطية، رحيل ـ سوف أضع نفسي في جناح بنتلى الذي قابلته بالأمس أمام الواجهة، نظرة أخير إلى واجهة ٣ مكرر، واحد من المنازل التي نحلم أن نسكنها. تلامست. لقد أدخلت نفسي بدافع التفتيش، لم يكن لديّ مكاني. لا أهمية، أدرت مفتاح الراديو.

مسكين سوينج تروبادور

نهج مالاتوف، الموتور لا يصدر أي صوت. انزلقت نحو بحر راكد. سقوط أوراق الشجر يسبب ضجة. ولأول مرة في حياتي، أحس أنني في حالة كاملة لإنعدام الجاذبية.

مصيرك، يا سوينج تروبادور

توقفت في زاوية من ميدان فيكتور هيجو وشارع كوبرنيكس. أخرجت من جيبي الداخلي المسدس المغلف بالعاج المرصع بالزمرد الذي اكتشفته على مائدة السيدة دربل ـ رسبيرو

.. لم يعد هناك ربيع، يا سوينج تروبادور

وضعت السلاح على القمطر، انتظر، مقاهي الميدان مغلقة، ولا واحد من المشاة. ومسدس من طراز خفيف ـ من اللون الأسود، ينزل اثنان، ثم ثلاثة، ثم أربعة إلى طريق فيكتور هيجو. قلبي يخفق يتقدمون نحوى. بتباطئ. تتوقف الأولى بطول بنتلى. الخديو، وجهه على مقربة سنتيمترات من وجهي، خلف الزجاج. يحدق فيّ. العينان رقيقتان. أحسست أن فمى يتضارب في تكشيرة فظيعة. الاعياء. تلفظت مصيري بطريقة يمكنها أن تقرأ على شفتيّ: أنـا الأمـيـرة دو لام ـ بـا ـ ل. أنـا الأمـيـر ـ ة ـ دو ـ لام ـ بـا ـ ل. أمسكت المسدس، اختطفت الزجاج، انتبه لي وأنا ابتسم مثلما يفهم دوما. ضغطت على الزناد، وجرحته في كتفه الأيسر. الآن، يطاردوني على مسافة، أعرف أنني لن أهرب منهم. تدمير سياراتهم الاربع. في واحدة منها، يوجد رجال. ميدان سيماروزا: بريتون، روكرو. توديبو، روبير الشاحب، دانوس، جواري... فيتا أرليكا. يقود السيارة 11CV التي يركبها الخديو، لديّ الوقت لأرى في المقعد الخلفى ليونيل دو زيف، هيلدر وروزنهايم، سلكت طريق مالاكوف في اتجاه تروكاديرو، وشارع لوريستون لأمسك زجاجة خمر تالبو زرقاء مشبرة. انها تخص فيليبير، ثم لاديهاى لا بورديت من القائد السابق كوستنييني. كانوا جميعاً على موعد بدءاً من موسم القنص. درت ببطء. انهم يحترمون تصرفى. يقال انه موكب جنائزي لم أمارس أي وهم: العملاء المزدوجون سوف يموتون يوماً، أو

آخر بعد أن يتأخر الاستحقاق، بفضل الألف طريق ذهاباً وإياباً، حيل، كذبات، واكروباتي. يحل التعب سريعاً جداً. لم يبق سوى النوم فوق الأرض، ألهث، وانتظر تصفية الحساب، لا يمكن أن نهرب من الناس. طريق هنري ـ مارتان ـ نهج لافيس. قدت بشكل عشوائي، وتتابع الآخرون على مسافة خمسين متراً، أي اسلوب يستخدمونه من أجل تصفيتي؟ هل سيتجاوزني بريتون في جهاز الماجتو؟ إنهم يعتبرونني صيداً مهماً: «الأميرة دو لامبال» زعيم ال ش ف ظ. من ناحية أخرى فقد قمت بإطلاق الرصاص على الخديو. طريقتي في التصرف يجب أن تبدو بالغة الجد. ألم أقدم لهم كل «فرسان الظلام»؟ يجب أن أفسر هذا لنفسي. هل لديّ القوة؟ نهج بريير، من يعرف مهووساً سيهتم بهذا، ربما في خلال سنوات من هذه القصة، فيما يتعلق بـ «فترة المتاعب».. التي عشناها، متفحصاً الصحف القديمة، سوف يقابل الكثير من المتاعب لتحديد هويتي. ما هو دوري. ميدان سيماروزا، في صدر واحد من العصابات الأكثر صلابة من الجستايو الفرنسي، وشارع بواسروبير بين أعضاء ش ف ظ؟ أنا أجهد نفسي، طريق وارجام. المدينة في حاجة إلى ترويض كبير.

فى كل دورة

سنشيخ قليلاً...

أستفيد من باريس للمرة الأخيرة. في كل شارع، وكل مفترق

طرق، تتحرك الذكريات. حيث قابلت ليلي مارلين في فندق كلارديج الذي كان يسكنه قبل هروبه إلى شامونتي. حفل مابيل حيث رقصت مع روزيتا سرجان، تركني الآخرون أتابع رحلتي، حتى يقرروا اغتيالي، تظل سياراتهم دوماً على مسافة خمسين مترا وراءى. تسلك النهج الكبير، ذات مساء صيفى. من النوافذ نصف المفتوحة تنطلق نغمات الموسيقى، يجلس الناس في شرفة المقاهي حيث يتنزهون في مجموعات، بلا مبالاة والمرايا العاكسة ترتعد وتشكل، ألف مصباح أضاءت لتوها أسفل الأشجار ضحكات تتفجر في كل الأنحاء، انتابني الإحساس أنني أعيش لحظات من الماضي، سرنا عبر رصيف السين، من الضفة اليسرى، الشقة التي أسكنها مع أمي. والأبواب مغلقة.

رحلت

وغيرت العنوان

عبرنا ميدان شاتليه، رأيت الملازم، وسان جورج مصابين في زاوية من طريق فيكتوريا، تنهدت بنفس الطريقة، قبل أن ينتهي الليل. لكل دوره، على الناحية الأخرى لنهر السين، كتلة معتمة محطة سترليتز، القطارات لم تعد تتحرك منذ فترة طويلة، رصيف الرابية، طريق بيرسي. ترافقنا في أحياء خاوية تماماً، لماذا لا نستفيد منها؟ كل.هذه المستودعات ـ تبدو لي ـ تصفية حسابات. ينطلق ضوء الفجر حيث قررنا اتفاقاً موحداً من الدورة، عواميد

منطفأة. شارنتون لو ـ بون. غادرنا باريس، سكبت بعض الدموع، كم أحب هذه المدينة، أرضي. جحيمي، عشيقتي العجوز البالغة الشحوب. شابيسن ـ فوق ـ مارن.

متى سيقررون؟ أريد أن أنتهي، أنا. وجوه الذين أحبهم تنسحب للمرة الأخيرة، برنتي: كيف سيصير غليونه، وحذائه الجلدي الأسود، كورفيزار: انه يحركني ـ هذا الغبي.. سمين: ذات مساء، سوف نجتاز ميدان ادولف ـ شيريو وسيشير لي نحو نجمة في السماء. «إنها من عائلة الفلقيات»، أعارني السيرة الذاتية لهنري دوبورتازيل، تصفحتها، وجدت فيها صورة قديمة وهو بزي البحار. أوبليجادو: نظرته الحزينة، انه يقرأ عليّ دوماً مقاطع من صحيفته السياسية، هذه الأوراق، التي تعفنت الآن في أعماق أحد الأدراج، بيتبوس: ماذا عن خطيبته؟ سان جورج. ماربوف، ويلبورت. قبضاتهما الممتدة. ونظراتهما المستقيمة. النزهات في فوجيرار. أول مواعيدنا تحت أقدام تمثال جان دارك. صوت الملازم؟ لقد تجاوزنا لتونا فيلينوف ـ لوردا. بدت لي بعض الوجوه: أبي ـ الكنيسة ـ ستافيسكي. انه خجل مني، يريدني أن أكون سان رسير، أمي. موجودة في لوزان. وأستطيع أن ألحق بها. وبكل تعجل أجمع قتلاي.

لديّ أوراق بنكية ملء الجيب، تغلق عيون رجال الجمرك السويسري الأكثر يقظة، استخدمها كثيراً. تنهدت. الحقيقة أن لوزان

لا تكفيني قط. ماذا قرروا؟ رأيت الخديو في مرآة عاكسة للسيارة 11CV تقترب، تقترب، لا، إنها تفرمل فجأة، يلعبون القط والفأر، أسمع الراديو لقضاء الوقت.

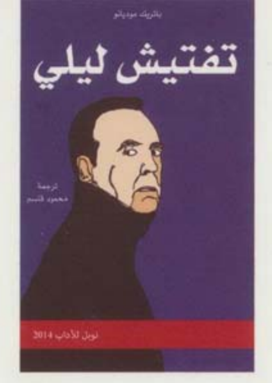
أنا وحيد

هذا المساء

مع ألمي

لم يعد كوكولاكور وآزميرالدا موجودين. ألغيت ليلي مارلين، ابتلع الشباب الصغار ل ش ف ظ. تجاوزنا الكثير من الناس في الطريق، يجب أن أحتفظ بكل هذه الوجوه. وإلا تضيع المواعيد، وأن نبقى مخلصين لمواعيدهم، مستحيل، رحلت على وجه السرعة. باغياً الهروب، في هذه اللعبة. ننتهي في أنفسنا، على كل، لم أعرف قط من أكون. أعطي لسيرتي الذاتية سلطة ـ أن أتذكر فقط «إنسان» تمنيت له أن يكون شجاعاً، لم أستطع أبداً أن أوسع خطاي. ولا نفسي، ولا عباراتي. لن يفهم أبداً هذه القصة، ولا أنا. لقد هجرونا.

لاي ـ ليهروز. عبرنا أماكن أخرى، ومن وقت لآخر، فإن سيارة الخديو 11CV تتجاوزني. والقائد السابق كوستنتيني وفيليبير، يلتف حولي على مسافة كيلو، لقد تركوني أجتاز طريقي ـ جبهتي على المقود. الطريق محوط بالناس، يكفي بحركة رعناء أن أستكمل تقدمي وأنا نصف نائم.



يبدو كل شيء ساكناً فى هذه الراوية، الأشخاص، جالسون فى أماكنهم، بأسمائهم الغريبة، الأماكن ساكنة، أم البطل في بيتها هناك.. ساكنة ، بعض شخصياتها مصابون بالصمم. كل شيء غريب، وجديد، ومبهر، وقد جاءت عبقرية الراوية فى أن أصحاب هذه الأسماء، التصقوا ببعض، كأنهم تماثيل تزدحم فى قاعة متحف.

إنها رواية الحرب الموديانية.
الموديانية (نسبة إلى موديانو) تعنى التفاصيل الدقيقة لاستعادة الذاكرة، أو الذكريات، لأشخاص يعيشون فى الغالب داخل أنفسهم، دون أن يخرجوا منها، وهذه الراوية، غريبة العنوان، مليئة بمثل هؤلاء الأشخاص.